الفصل الأول

الدرس الصوتـي في سورة الزخرف

مدخل إلى الدرس الصوتي

تُعَدُّ أصوات اللغة هي المادة الأولى لتخليق جميع الدراسات اللغوية ؛ وذلك لأن الوجود الحي لكلمات اللغة ومن ثم للجمل والعبارات لا يأتي إلا من خلالها .

والدرس الصوتي الحديث يعرض لصورتين من صور الصوت اللغوي ، تتحقَّق الصورة الأولى منهما في هيئة الصوت المفرد وماله من سمات وخصائص ، فيأتي علم الأصوات النطقي في مقدمة هذه الدراسات ، ثم يليه علم الأصوات الفيزيائي ، وأخيرًا علم الأصوات السمعي .

وعن طريق هذه العلوم الثلاثة يتعرف الدارس على طريقة إنتاج أصوات اللغة وطريقة نطقها ، ثم مرحلة انتقال الهواء عبر الذبذبات المصاحبة لنطق هذه الأصوات ، ثم الجانب الإدراكي لهذه الأصوات ، وذلك كله في إطار ما يسمى بدراسة الفوناتيك أو علم الأصوات العام .

وقد اعتمد العلماء في هذه المرحلة على تقديم صورة مفصَّلة عن الصوامت و الحركات ، وذلك من خلال تقديم وصف دقيق لمخرج كل صوت من أصوات اللغة ، يليه الصفات الخاصة به عامَّة يتصف بها وبغيرها ، أم خاصَّة ينفرد بها عن بقية أصوات اللغة.

ولكن حتى تكون أصوات اللغة وسيلة من وسائل التعبير لم تكن لتستقر على هذا الحال فكان لا بد من أن تخرج من طور التجريد والإفراد الذي تكفلت به الصورة الأولى إلى طور التنظيم والتركيب عن طريق دراسة الفونولوجى أو علم التشكيل الصوتي أو علم الأصوات الخاص ، وبذلك تصبح مادة لغوية قادرة على بدء لغة الحوار بين المتكلم و السامع .

وبذلك تتحول أصوات اللغة في هذه المرحلة الثانية إلى عالم آخر يتم من خلاله دمج هذه الأصوات في صورة تنظيمية تركيبية قد تستقر معها أصوات اللغة كما في الصورة الأولى بدون أي تغيير ، وقد يتم التفاعل بينهما فتبدو بصورة نطقية أو شكلية أخرى ، فينشأ عن هذا التجاور والتلاحم بين أصوات اللغة كثير من القضايا الصوتية ، إضافة إلى طريقة الآداء الصوتي وما يصحبه من ظواهر آدائية مختلفة تبدو لها قيمتها الدلالية ، وذلك بعد التعرف على المقطع الصوتي ، فينظم هذا العلم ويخرج إلى الوجود من خلال بعض الضوابط و القواعد التي ترسم حدوده وتوضح معالمه ، ولكنه في الوقت نفسه لا يمكن أن ينفصل عن الحالة الأولى بحال من الأحوال .

فمن خلال هذه الدراسة التنظيمية الفونولوجية يعرض الباحث لأربع من القضايا الصوتية ، وذلك في ضوء القوانين والضوابط التي تعارف عليها الدرس الصوتي الحديث ، والتي ظهرت فيها بعض أصوات اللغة – من صوامت وحركات – بصورة نطقية أو شكلية أخرى غير التي كانت عليها في حالة الإفراد والتجريد ، وذلك من أجل الوقوف على حقيقة هذا التأثير والهدف منه ، ثم تأتى طريقة الآداء الصوتي من خلال تغليف كل مجموعة منها بآداء صوتي معين فتصبح للأصوات اللغوية بذلك قيمة دلالية .

– فعن طريق التأثير الصوتي الخاص بالصوامت عرض الباحث لقضية :–

1- تخفيف الهمزة :

لما كان صوت الهمز من أكثر الأصوات الصامتة التي تحتاج إلى جهد عضلي أكبر مما يحتاجه أي صوت آخر من أصوات اللغة مالت بعض اللهجات العربية إلى لغة التخفيف ، في حين أصَرَّ بعضها الآخر على لغة التحقيق ، وأيدت القراءات القرآنية اللغتين معًا.

وقد تشكَّلت الصور الخاصة بتخفيف الهمزة في اللغة بعدة أشكال ظهرت في عرف أهل اللغة تحت ما يسمى بالحذف والإبدال والتسهيل .

ومن خلال القراءات القرآنية في سورة الزخرف عرض الباحث لمجموعة هذه الأشكال و الصور ، وذلك عن طريق جمع كل قراءة بجوار الأخرى والتي تتفق معها في المجموعة الخاصة بها .

- وعن طريق التأثير الصوتي بين الحركات ظهرت قضية :

2- الإمالة :

عن طريق التقريب بين الصوائت الطويلة والقصيرة على حد سواء ، وذلك من خلال أصوات الكسرة والياء والفتحة والألف ظهرت ظاهرة الإمالة في اللغة العربية ، وذلك إما عن طريق الانسجام بين أصوات اللين أو بيان الأصلي اليائي .

وقد قَدَّم دانيال جونز ثماني حركات معيارية تصلح مقياسًا وأساسًا لكل اللغات ، وعن طريق مقارنتها بالعربية أمكن وضع كل حركة من حركات الإمالة تحت الحركة المعيارية الخاصة بها .

وفي هذا المبحث مجموعة من القراءات القرآنية تندرج بعض الحالات فيها تحت دائرة الانسجام بين أصوات اللين ، ثم الدائرة الأخرى والأكثر تواجدًا في السورة من خلال بيان الأصل اليائي ، مع عرض بعض الحالات الخاصة التي تخرج عن الدائرتين معًا .

– وعن طريق التأثير الصوتي بين الصوامت معًا أو بين الحركات كذلك عرض الباحث لقضيتي :

3- المماثلة :

إن لغتنا العربية من اللغات التي تحرص على وجود التماثل بين أصواتها تحقيقًا للاقتصاد في الجهد العضلي و الانسجام بين أصوات اللغة ، سواء من خلال دائرة الصوامت أو الحركات ؛ ولذلك فهي لا تجمع غالبًا بين أصوات متقاربة المخارج ؛ لأن في ذلك نفورًا تأباه وتهرب منه بخلاف الجمع بين الأصوات المتباعدة المخارج فهو يساعد على تحقيق هذا الهدف .

ومن خلال ثلاث دوائر صوتية تجمع بين صور مختلفة من التماثل عرض الباحث لتفاصيل هذا المبحث .

4- الإبدال :

من خلال بعض القواعد والضوابط أصَّل علماء العربية قديمًا وحديثًا لظاهرة الإبدال ، وذلك في ضوء العلاقات الصوتية التي تعتمد علي المخارج والصفات ، ثم الاتفاق في المعنى ، فتتميَّز صورته بذلك عن صورة غيره من القضايا الأخرى .

وقد ظهرت صورة الإبدال في سورة الزخرف من خلال مجموعة من القراءات القرآنية عرض لها الباحث سواء من ناحية الصوامت أو الحركات .

– وعن طريق الآدائيات الخاصة بالصوامت والحركات في صورتها التنظيمية في سورة الزخرف عرض الباحث لقضيتي النبر والتنغيم يسبقهما الحديث عن المقطع الصوتي باعتباره المادة الأساسية لتحقيق عامل الآداء الصوتي .

5- المقطع الصوتـي :

يعتمد نسيج الكلمة العربية علي مجموعة من المقاطع الصوتية لها من الحدود والضوابط ما يميُّزها عن غيرها من اللغات الأخرى ؛ وذلك في إطار التركيبة الصوتية التي تجمع بين الصوامت والحركات ؛ وذلك لأن الصورة النطقية للكلمة العربية إنما تخرج في هيئة أجزاء ووحدات هي ما تعارف عليه في الدرس الصوتي بالمقاطع الصوتية .

ومن خلال مجموعة من الأشكال والصور ظهرت المقاطع الصوتية في العربية، ولكنها لا تخرج في النهاية عن صورة المقطع المفتوح أو ما يسمى بالمتحرك ، و المقطع المغلق أو ما يسمى بالساكن ، وذلك في دائرة انتهاء المقطع الصوتي بصورة الحركات الطويلة أوالقصيرة أو بصورة الصوامت .

وبعد تقديم الدراسة النظرية في هذا المبحث يعرض الباحث لهذه الأشكال و الرموز في سورة الزخرف عامَّة ، أو من خلال بعض القراءات القرآنية فيها والتي تتحول فيها صورة المقاطع الصوتية ، ثم يحاول في النهاية عرض بعض المشاهد الخاصة بهذه السورة ، وبشيء من الاجتهاد يربط بين أغراض هذه السورة ومشاهدها والأثر الدلالي فيها .

6- النبر :

لم تكن لتظهر المقاطع الصوتية في الكلمة العربية بدرجة نطقية واحدة، بل تتفاوت في الوضوح والقوة ، وهو ما يلحظه المستمع في السياق الصوتي ، و ذلك من خلال الضغط على بعضها دون بعضها الآخر ، وهذا ما يسمي في عالم اللغات بـ (النبر) .

وقد رسم علماء اللغة حديثًا هذه الصورة الخاصة بالمقاطع الصوتية في داخل حدود الكلمة العربية من خلال مجموعة من القواعد عرض لها الباحث في إطارها النظري ، ثم في إطارها التطبيقي من خلال عرض نماذجها في سورة الزخرف ، وذلك تحت عنوان (**قواعد النبر المقطعي ونماذجه في سورة الزخرف**) .

ثم يعرض الباحث للمواضع التي يتم من خلالها تحويل النبر من مقطع إلي مقطع آخر اعتمادًا على الاشتقاق أو إسناد الفعل إلى الضمائر المتحركة أو الجزم، وذلك كله في إطار عنوان(نبر الكلمة).

وإذا كان النبر المقطعي لا يلحظ فيه أي أثر من آثار الدلالة يأتي نتيجة لاختلاف الضغط من مقطع إلى مقطع آخر فإن الباحث قد عرض للقسم الثاني من أقسام النبر وهو (نبر الجملة) ، والذي يحمل قيمة دلالية تدفع الشك أوالظن أو تثبت حقيقة أو تؤكد أمرًا ما .

و بشيء من الاجتهاد عرض الباحث في هذا القسم لمجموعة من الكلمات في سورة الزخرف محاولا إبراز القيمة الدلالية لها وبيان أثرها في سياق هذه السورة .

7- التنغيم :

من خلال ترتيب صورة صوتية معينة والتنويع بين درجاتها في آداء صوتي معين بين صعود وهبوط يعبر عن حالة المؤدِّى وما يعتريه من مشاعر وأحاسيس مختلفة يأتي التنغيم في العربية .

والتنغيم فيها قد يأتي من خلال صورتي المقطع في داخل إطار الكلمة ، أو يكون سياق الجملة هم عالمه وعنوان وجوده ، ولكل قيمته الدلالية .

ومن خلال مستويات التنغيم ودرجاته يعرض الباحث للتنغيم السياقي في سورة الزخرف وأثره الدلالي ، وهو زهرة ختام هذه الدراسة الصوتية ونسيم عبيرها .

المبحث الأول : تخفيف الهمزة

إذا كانت الأصوات في العربية تدور بين الصوامت والحركات فبلا شك فإن صوت الهمزة يُعَدُّ من الأصوات الصامتة ؛ وذلك لما يحدث في أثناء النطق به من اعتراض كامل في مجرى الهواء ثم الانفراج الفجائي الذي يصحبه ، وهذه هي إحدى الحالات التي تتسم بها تلك الأصوات.

فالصوت الصامت : هو الصوت المجهور أو المهموس الذي يحدث أثناء النطق به اعتراض أو عائق في مجرى الهواء في الفم . سواء أكان الاعتراض كاملا ... أو كان الاعتراض اعتراضًا جزئيًّا من شأنه أن يسمح بمرور الهواء ولكن بصوره ينتج عنها احتكاك مسموع [1].

وقبل أن نتعرف على صوت الهمزة في سورة الزخرف وما يعرض له من حالات التخفيف عبر قراءات قرآنية – صحيحة وشاذة – كان لابد من عرض الحقائق الآتية:

أولا - الهمزة بين المخرج والصفة :

أظهرت بعض الدراسات الصوتية الحديثة أن إنتاج صوت الهمزة يأتي من "المزمار نفسه ، إذ عند النطق بالهمزة تنطبق فتحة المزمار انطباقًا تامًّا فلا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق ، ثم تنفرج فتحة المزمار فجأة فيسمع صوت انفجاري هو ما نعبر عنه بالهمزة[2] ".

وهذه الحالة تأتي "عن طريق عصر زمير الأوتار لحطة اتجاهها للالتقاء وإغلاق تلك الفتحة ، أو لحظة افتراقها بعد أن كانت مغلقة ...والمزمار والفتحة التي بين الوترين الصوتيين اللذين هما حافتا الغشاءين الصوتيين. وهذه الفتحة هي التي يتولد منها زمير الجهر بارتقاء وتَريْها إذا كانا جدّ متقاربين ومر هواء النفس من بينهما باندفاع قوى[3]".

ومن خلال هذا المنطلق تأتي صفة الجهر ملازمة لصوت الهمزة المحققَّة , "حيث إن جسمها أو

---

(1) علم الأصوات د. كمال محمد بشر ص151 – دار غريب – القاهرة – 1420هـ 2000- م . وينظر : علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د. محمود السعران ص149 – دار الفكر العربي – 1412 هـ - 1992م ، وأصوات اللغة العربية د. عبد الغفار حامد هلال ص 104 – الطبعة الثانية 1408هـ - 1988م .

(2) الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس ص87 – مكتبة الأنحلو المصرية 2007م . وينظر : علم الأصوات ص188،واللهجات العربية في القراءات القرآنية د. عبده الراجحى ص95 – دار المعرفة الجامعية1996م .

(3) المختصر في أصوات اللغة العربية (دراسة نظرية وتطبيقية) د. محمد حسن حسن جبل صـ 74 – مكتبة الآداب – الطبعة الخامسة – 1429هـ - 2008م .

حقيقتها أنها زمير معصور قصير ، والزمير هو عين الجهر ، فالهمزة مجهورة ، وما احتجت به دراسات الغربيين من أن الهمزة تحدث بإغلاق الوترين الصوتيين ، ولا زمير معها حينئذ ، فإما أن توصف بأنها مهموسة[1] ، وإما أن توصف بأنها لا مجهورة ولا مهموسة[2] ، هذه الحجة غير مقبولة ؛ لأن الهمزة لا تتكون بنفْس حالة انغلاق الوترين بل تخرج بعصر زمير سابق للانغلاق أو مسبوق به – كما قلنا – أي أن حالة كون الوترين مغلقين ليست هي الهمزة ولا هي هيئة خروج الهمزة ، بل ولا هيئة خروج أي صوت آخر[3]".

وإذا كان الخلاف بين المحدثين قد اتسع المجال فيه عند وصف الهمزة بهذه الصفة ، فإن هذا الخلاف قد تلاشى تمامًا عند وصفها بصفة الشدة ؛ وذلك " لأن ارتباط خروج الهمزة المحققة (وهى الأصل) بإغلاق فتحة المزمار إغلاقا يمنع النفس منعًا تامًّا قبل نطقها أو بعده ، بحيث لا تُنْطَق بغير مقارنة ذلك الإغلاق ، ذلك يجعلنا مطمئنين إلى وصفها بالشدة لأن الشدة لازمة لإخراجها"[4].

---

(1) وقد ذهب إلى هذا الرأي هفنر , ودانيال جونز , و د.عبد الرحمن أيوب , و د.تمام حسان , ود.رمضان عبد التواب , ود. أحمد مختار عمر . ينظر : القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث د.عبد الصبور شاهين صـ 24 – مكتبة الخانجي بالقاهرة 1966م , والعربية الفصحى . هنري فليش . تحقيق د. عبد الصبور شاهين صـ 53 – مكتبة الشباب – الطبعة الثانية 1997م, وأصوات اللغة د.عبد الرحمن أيوب صـ 183 – مطبعة الكيلاني – الطبعة الثانية 1968م , ومناهج البحث في اللغة د. تمام حسان 125 – طبعة دار الثقافة – الدار البيضاء – المغرب – 1400هـ - 1979م , ومشكلة الهمزة العربية – د.رمضان عبد التواب صـ 24 – مكتبة الخانجي – الطبعة الأولى 1417هـ - 1996م , ودراسة الصوت اللغوي د. أحمد مختار عمر ص344 - عالم الكتب - 1411هـ - 1991م .

(2) يرى كثير من المحدثين هذا الرأي , حيث " قد ينطبق الوتران انطباقًا تامًّا فلا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق مدة هذا الانطباق , ومن ثم ينقطع النفس , ثم يحدث أن ينفرج هذان الوتران, فيخرج صوت انفجاري نتيجة لاندفاع الهواء الذي كان محبوسًا حال الانطباق التام. هذا الصوت هو همزة القطع .فهمزة القطع العربية إذن صوت صامت لا هو بالمهموس ولا بالمجهور" . علم الأصوات ص 175 . وينظر : علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص171 , والأصوات اللغوية ص 87 , والقراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص 24 .

(3) المختصر في أصوات اللغة العربية ص 76 .

(4) السابق الصفحة نفسها . وينظر : الأصوات اللغوية ص87 ، وعلم الأصوات ص188 ، وفقه اللغة د.على عبد الواحد وافي ص167 – دار نهضة مصر ، ودراسات في فقه اللغة د. صبحي الصالح ص281 – دار العلم للملايين – الطبعة الحادية عشرة 1379م – 1960 م.

ثانيًا - الهمزة بين التحقيق والتخفيف وموقف اللهجات العربية :

إن ما تم عرضه سابقًا يعتمد على مخرج الهمزة المحققة ، والذي يمثل بلا شك وبهذه الصورة جهدًا على الناطق به ؛ وذلك لأن " انحباس الهواء عند المزمار انحباسًا تامًّا ثم انفراج المزمار فجأة ، عملية تحتاج إلى جهد عضلي قد يزيد على ما يحتاج إليه أي صوت آخر ، مما يجعلنا نعد الهمزة أشق الأصوات[1] ".

لذلك مالت بعض اللهجات العربية إلى التخلص منها ، في حين حرصت بعض اللهجات على تحقيقها " وهذه القبائل التي كانت تحقق الهمزة قبائل كانت تعيش في البادية ، أما قبائل التسهيل فهي تلك التي كانت متحضرة في الحجاز وبخاصة قريش في مكة ، والأوس والخزرج في المدينة[2] ".

ومن هنا فتحقيق الهمزة وتخفيفها كان من إحدى الظواهر التي حددت بعض المعالم الخاصة النطقية بين اللهجات العربية حتى استقر تحقيق الهمز في اللغة النموذجية الأدبية ، حيث قيل : " فظاهرة الهمز من تحقيق أو تسهيل كانت في أصلها من الأمور ، التي فرقت بين لهجات وسط الجزيرة وشرقيها وبين لهجات البيئة الحجازية , فلما نشأت اللغة النموذجية الأدبية قبل الإسلام اتخذت تحقيق الهمز صفة من صفاتها ،وشاع هذا بين الخاصة في جميع القبائل العربية ، ولما جاء الإسلام وجد تحقيق الهمز صفه من صفات الفصاحة يلتزمها الخاصة من العرب في الأسلوب الجدي من القول ، وإن ظلت في الوقت نفسه شائعة بين اللهجات البدوية كلهجة تميم ومن على شاكلتهم . ولهذا يعد تحقيق الهمز من أبرز الأمور التي اقتبستها اللغة النموذجية من غير البيئة الحجازية ، فاللغة النموذجية الأدبية وإن اتخذت معظم صفاتها من البيئة الحجازية قد تضمنت أيضًا بعض الصفات القليلة التي تنتمي لبيئة أخرى ومن بينها تحقيق الهمز الذي عرفت به تميم ، بل شاع عند أكثر البدو ، فقد كانوا يحققون الهمز ويعتزون بتحقيقه في نطقهم[3] ".

---

(1) الأصوات اللغوية ص87 . وينظر : في اللهجات العربية د. إبراهيم أنيس ص68 – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي د. رمضان عبد التواب ص86 – مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة الثانية - 1405هـ - 1985م .

(2) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ص106 .

(3) في اللهجات العربية ص69 .

ثالثًا - القراء بين التحقيق والتخفيف :

مال بعض القراء إلى تحقيق الهمزة في حين آثر بعضهم الآخر لغة التخفيف ، وليس ذلك من قبيل الاختيار اعتمادًا على البيئة ؛ لأننا لو سلَّمنا بذلك واعتبرناه مبدأ لوجدنا الواقع اللغوي يشهد بخلافه ، فربما وجدنا في قراءة بعض القراء ما يوافق لغة بيئته ، وفيها ما يخالفه فلا يصلح من هنا أن يكون مبدأ وأصلا ،حيث "نلحظ بوجه عام أن كتب القراءات تكاد تجمع على أن أبا جعفر ونافعًا من رواية ورش ، قد تخلصا من تحقيق الهمز ، ولا غرابة في ذلك فهم من أشهر قراء المدينة ، ومن البيئة الحجازية التي اشتهر عنها عدم الهمز . ولو أن "ابن كثير " اشترك معهما في تلك الصفة ، لاستطعنا بسهولة أن نحكم على أن القراء قد التزموا مما عرف في بيئتهم أو عدمه[1] ".

"وابن كثير مكي ، ومكة منزل قريش ، من أجل ذلك قررنا من قبل أننا لا نستطيع أن نعتمد على بيئة القارئ في تحديد اللهجة[2]".

ومن هنا " نرفض الاعتماد على بيئة القارئ في تحديد اللهجة التي تصورها قراءته[3] ".

وكذلك " الغريب أن يحققها قراء البيئة العراقية الذين عرف عنهم الميل إلى التسهيل من إدغام و إمالة ! على أن اللهجات لا تلتزم دائمًا حالة واحدة في كل صفاتها ، بل أحيانًا تخرج عن تلك الظاهرة التي اختصت بها لظروف لغوية خاصة ، وحينئذ يكون واجب الباحث المدقق الكشف عن تلك الظروف الخاصة، وإذا نظرنا إلى اللهجات على أنها من المظاهر الاجتماعية ، فإنها تخضع في قواعدها وأصولها لظروف المجتمع والبيئة ، ثم يقلقنا وجود ظاهرة لغوية قد تبدو غريبة أو شاذة عما عرف عن لهجة من اللهجات . فليست القوانين التي تخضع لها اللهجات كالقوانين الطبيعية في الكون ، تلتزم حالة واحدة لا شذوذ فيها ، بل يكتفي اللغوي عادة حيث يحكم على صفة من الصفات بالحكم على الكثرة الغالبة من صفاتها[4]".

إذًا فالاختلاف في طبيعة النطق بين القبائل الحضرية والبدوية هو ما حدَّد معالم هذا الاختلاف

---

(1) السابق ص67 . وينظر : اللهجات العربية في القراءات القرآنية ص99 .

(2) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ص100 .

(3) السابق ص106 .

(4) في اللهجات العربية ص68 .

في صوت الهمزة ؛ وذلك لأن " الهمزة صوت حنجري شديد مما يناسب البيئة البدوية ، وهي قبائل وسط الجزيرة وشرقها ، فهي أساسًا من لهجات تميم وقيس وبني أسد ومن جاورهم ، والتسهيل في أصله لهجة البيئة المتحضرة وهم أهل الحجاز وبخاصة قريش في مكة والأوس والخزرج في المدينة . ولم يكن الحجازيون جميعًا بعيدين عن تحقيق الهمز إلى تسهيله بل منهم من استهواه تحقيقه[1] ".

ولكن تقرير ذلك يخالف طبيعة القبائل الحضرية التي تميل إلى التأني في النطق ، وطبيعة القبائل البدوية التي تميل إلى السرعة فيه ، ولكن " إذا كانت القبائل البدوية تميل إلى السرعة في النطق ، وتلمس أيسر السبل إلى هذه السرعة ، فإن تحقيق الهمزة كان في لسان الخاصة التي تخفف من عيب هذه السرعة ، أي أن الناطق البدوي تعود النبر في موضع الهمزة ، وفيما يقابل موقعها في الكلمات الخالية منها ، وهي عادة أملتها ضرورة انتظام الإيقاع النطقي ، كما حتمتها ضرورة الإبانة عما يريد من نطقه لمجموعة من المقاطع المتتابعة ، السريعة الانطلاق على لسانه ، فموقع النبر في نطقه كان دائمًا أبرز المقاطع ، وهو ما كان يمنحه كل اهتمامه وضغطه .أما القبائل الحضرية – فعلى العكس من ذلك –كانت متأنية في نطقها ،متئدة في آدائها ، ولم يشتهر عنها إدغام أو إمالة، ولذا لم تكن بها حاجة إلى التماس المزيد من مظاهر الأناة ، فأهملت همز كلماتها ، أعنى المبالغة في النبر والتوتر ، واستعاضت عن ذلك بوسائل عبر عنها النحاة بعبارات مختلفة ، كالتسهيل والتخفيف، والتليين ، والإبدال، والإسقاط[2]".

رابعًا- صور التخفيف في صوت الهمزة :

تعددت صور التخفيف في صوت الهمزة وتشكلت بأشكال شتى تخفيفًا لهذا الجهد الذي يبذله الناطق بصوت الهمزة المحققة , وذلك من خلال بعض الصور التي عرضت لها القراءات القرآنية في سورة الزخرف والتي تشكلت بأشكال الحذف والإبدال والتسهيل ، حيث "تكاد تجمع الروايات على أن التزام الهمز وتحقيقه من خصائص قبيلة تميم ، في حين أن القرشيين يتخلصون منها بحذفها أو تسهيلها أو قلبها إلى حرف مد[3]".

---

(1) اللهجات العربية نشأة وتطورًا د. عبدالغفار حامد هلال ص220 , 221 – الطبعة الثانية 1410هـ – 1990 م .

(2) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص30 ، 31 .

(3) في اللهجات العربية ص67 .

وهذه الألوان والأشكال من التخفيف يعرض لها الباحث في صورة مجموعات كل مجموعة منها تحمل شكلا من أشكال التخفيف ، ثم يأتي التعليق عليها من خلال نظرة الدرس الحديث لها .

المجموعة الأولى : صورة الحذف :-

ظهر الحذف في هذه الصورة كعلامة أو دلالة على القضاء على صوت الهمزة وفنائه تمامًا ،حيث قيل عنه : "هو سقوط الهمزة من الكلام دون التعويض عن سقوطها بشيء[1]".

وقد عرضت سورة الزخرف لحذف صوت الهمزة في عدة قراءات يمكن أن يتم تقسيمها إلى حالتين فقط وهما :

الحالة الأولى : الهمزة المتحركة وقبلها متحرك :-

لم تأت الهمزة متحركة وقلبها متحرك في سورة الزخرف إلا في موضع واحد ، وهو صورة (الهمزة المضمومة وقبلها مكسور وبعدها واو) ، وذلك من خلال قراءتين فقط ، قرأ فيهما أبو جعفر وحده بحذف الهمزة و ضم ما قبلها ، وذلك في (يستهزئون) في قوله تعالى: (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)(7) ،و (يَتَّكِئُونَ) في قوله تعالى:(وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) (34)[2].

وفي هذه الحالة وما يشبهها تم حذف صوت الهمزة اعتمادًا على صورة الاختلاف بين حركة الهمزة وحركة ما قبلها ، حيث قيل : " في مثل هذه الحالة يحدث انزلاق حركي بين حركة الصامت السابق للهمزة ، وحركة الهمزة نفسها بعد سقوط الهمزة ، ومن ثم يتشكل شبه حركة ، واوًا أو ياء حسب تتابع الحركات ... فالانتقال من الكسرة إلى الضمة يولد الياء (يَسْتَهْزِيُّونَ) بإسقاط الهمزة يصبح الفعل فيحدث انزلاق حركي بين الكسرة والضمة فتنشأ الياء ، ومن ثم يصبح الفعل يَسْتَهْزِيُّونَ[3] " .

إذًا فما حدث هنا هو أنه " قد سقطت الهمزة من هذه الكلمات ، ثم اختصر المزدوج بتغليب

---

(1) ينظر : الأصوات اللغوية ص88 .

(2) ينظر : النشر في القراءات العشر لابن الجزري 1/443 – دار الكتب العلمية- بيروت - لبنان ، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر .أحمد بن محمد البنا الدمياطي . تحقيق. أنس مهرة ص78 ، 171 ، 494 ، 495 – دار الكتب العلمية - لبنان– الطبعة الأولى 1419هـ -1998م .

(3) أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية د.فوزي الشايب ص459 ، 460 – عالم الكتب الحديث – أربد- الأردن - 1425هـ - 2004م .

عنصره الثاني ، وهو حركة الهمزة ، وحذف عنصره الأول ، وهو الحركة السابقة عليها . والنبر في هذه الحالة يفقد موقعه الذي كان أساسًا للمقطع المبدوء بالهمزة ، ويصبح موقعه المقطع السابق المنتهي بالعنصر الثاني من المزدوج ، أيًّا كان موقع كلا المقطعين ، وتحديد هذا ليس بعسير ، في الأمثلة السابقة . ومن البين أن هذا التصرف بإبقاء العنصر الثاني من المزدوج قد ساعد عليه التقاء الحركتين المتقاربتين في سياق صوتي[1] ".

الحالة الثانية : الهمزة المتحركة وقبلها ساكن :-

لم تتحقق صورة الهمزة المتحركة وقبلها ساكن في سورة الزخرف إلا من خلال حالة واحدة فقط ، وهي صورة (الهمزة المتحركة بالفتح وقبلها ساكن) ، وذلك في أربع قراءات فقط ، الأولى والثانية منهما بالحذف فقط ، والثالثة والرابعة بالحذف ونقل حركتها إلى الساكن قبلها .

فالأولى منها قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وتشديد الزاي في (جزءًا) في قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا)(15) ، وفي الثانية : قرأ حمزة بحذف الهمزة وقفًا في (تُسْئَلون) في قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلونَ) (44) , وفي القراءة الثالثة قرأ ابن كثير بنقل حركة الهمزة في (قرآنا) و (القرآن) إلى الساكن قبلها ثم حذفها ، وذلك في قوله تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (3) , وقوله تعالى : (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (31) ,وأما القراءة الرابعة فقرأ ابن كثير والكسائي وخلف وابن محيصن بنقل حركة الهمزة إلى السين ، ثم حذف الهمزة ، وسقطت من أوله همزة الوصل إذ لم تبق ضرورة لوجودها فصارت "وسل" وهى قراءة حمزة في الوقف في (وسئل) في قوله تعالى : (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا)(45)[2].

فالقراءة الأولى تحركت فيها الهمزة وقبلها ساكن ، فسقطت وعوض عنها التضعيف ، وهذا يعنى أن صوت الهمز قد تمَّ تحويله إلى صوت مضعف ، فهل هذا التضعيف يأتي نتيجة لإبدال الهمز من الزاي ؟ وإذا كان الأمر كذلك فماذا نجيب عن صوت الهمز بأنه لا مماثلة فيه فلا يدغم ولا يدغم فيه ؟.

---

(1) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص161 .

(2) ينظر : إتحاف فضلاء البشر ص494 . وهي لغة قرأ بها ابن شهاب الزهري وغيره . السابق ص81 .

والجواب عن ذلك أن بعض العلماء قد صرح بأن الهمزة تقلب في هذه الحالات إلى هذه الحروف التي قبلها ، حيث صرح كانتينو : " أن الهمزة تقلب راء وزايًا من جنس ما سبقها ، وهي على هذا القياس تقلب دالاً وفاء وشينًا ولامًا ، ومن ثم تتعرض للمماثلة مع جميع حروف المعجم – ونحن مع تقديرنا لعلم اللغوي الكبير ومنهجه – الذي يغلب في ظننا أنه وصفي تقريري – لا يسعنا إلا أن نقرر معارضتنا لرأيه ، استنادًا إلى ما سبق أن ذكرنا من أن المماثلة تستلزم القرابة الصوتية . ومن السهل أن نتعرف الآن السبب الذي أحدثه هذا التضعيف في الصوت السابق على الهمزة ، فإن الناطق حين أسقطها ، أو حين لم يسغ نطقها ، لم يجد مفرًّا من تعويض موقعها المنبور بنوع آخر من النبر مماثل ، وبذلك ضُعِّفت السواكن السابقة على الهمزة ، لا لأن الهمزة قلبت ساكنًا من جنسها ، وإنما لضغط الناطق على المقطع ضغطًا متوترًا ، فالراء والزاي والفاء والشين واللام ، وسائر السواكن الثواني في الصور المضعفة ، لا أصل لها من البناء اللغوي ، ولا يمكن تفسيرها بالإبدال ، كما قال كانتينو ، والتفسير الوحيد هو النبر ، الذي فعل فعله في تكوين هذه الصورة المشتبهة ، بحيث يمكن أن نطلق عليها : (سواكن نبرية)... ومن الأهمية بمكان أن نسجل هنا أن هذه الطائفة من الأمثلة المخفَّفة و المضعَّفة قد أعطتنا دليلا جديدًا يضاف إلى ما سبق أن قلناه ، من أن الهمز ليس سوى صورة وظيفية ، يمكن اللجوء إليها ، ولا يمكن الاستعاضة عنها بصورة أخرى ، ويمكن الاستغناء عنها ونقل الوظيفة إلى موقع آخر[1] " .

" فالتضعيف الذي يجيء نتيجة سقوط الهمزة حجازي ،ولا ينبغي أن ينسب إلى غير أهل الحجاز ، لأن الصورة الأخرى من الكلمة هي الهمزة لا غير ، مثل : (خطيئة) في خطية ، وهى تميمية قولا واحدًا . وبذلك يتبين أنه لا شذوذ في هذا التضعيف مادام جاريًا على سنة أرباب الفصاحة من أهل الحجاز ... وعودة إلى الوقف بالتضعيف لنشير إلى أن أستاذنا الدكتور أنيس قد قررأن قبيلة سعد بن بكر كانت تقف بالتضعيف ولكنه في موضع آخر يرجح أن هذه الظاهرة كانت شائعة في تميم ، ولسنا نجد في هذا تنافيًا مع القانون اللهجي ، وبخاصة حين نلحظ أن سعد بن بكر من هوازن ، وأن التقارب اللغوي كان متحققًا من عليا هوازن وسفلى تميم،فلعله كان تأثيرًا من تميم على بني سعد بن بكر[2] " .

---

(1) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص153 ، 154 .

(2) السابق ص150 . وينظر : في اللهجات العربية ص135 ، ومن أسرار اللغة د.إبراهيم أنيس ص208 – مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة السادسة 1978م .

ومن هنا " إذا كان الهمز هو الخاصة الواضحة في نطق أهل البداوة ، وكان عدم الهمز بما يتخلف عنه من طول في الحركة المهموزة أو لين هو الخاصة الواضحة أيضًا في نطق أهل الحضارة ، فلا شك أن النبر بالهمزة شكل من أشكال التوتر في النطق ... ولنبر التوتر في رأينا أيضًا شكل آخر ، حين يتخلف عن حذف الهمزة تضعيف في الصوت السابق عليها ... وإن كان من الممكن إلحاق هذا النوع بنبر الطول ، من حيث كان التضعيف في الصوت الساكن طولا في مدة آدائه ، لكنا نلاحظ هذا التوتر على المخرج ، أو تساوي الصورتين (المهموزة والمضعفة) من حيث الزمن تقريبًا ، بخلاف النبر المتمثل في طول الحركة أو المصوت، إذ يكون الطابع الآدائي انطلاقًا, ينفعل خلاله عضوا النطق ... وبناء على هذا نستطيع ابتداءً أن نصف لهجة البادية بنبر التوتر ، وأن نصف لهجة الحضريين بنبر الطول أو المدة ، وربما بالتضعيف فهلا يكون من الأولى أن ينسب إلى من لا يهمزون[1]؟ " .

وأما باقي القراءات التي قرئ فيها بحذف الهمزة لتحريكها ونقل حركتها إلى الساكن الصحيح قبلها ، فمعناه " أن موقع النبر ينتقل إلى المقطع الأول من الكلمة[2] " .

ويرى الدكتور/ عبد الصبور شاهين أن هذه محاولات لإبراز نبرهم فيقول : " أما نحن فنرى أن بعض الذين كانوا ينبرون بالهمزة كانوا يحاولون إبراز نبرهم بنقل الحركة ، أما الذين كانوا يتجنبون الهمزة فقد كانوا ينبرون المقطع السابق عليها ، والكلمة الثلاثية في حالة عدم النقل مقطع واحد ، في حالة الوقف يقع النبر عليها بأكملها[3] " .

المجموعة الثانية : صورة الإبدال

ذكر الدكتور/إبراهيم أنيس أن ضابط الإبدال في الهمزة معناه : " سقوطها من الكلام والاستعاضة عنها بإطالة صوت اللين قبلها ، فكأنها كالمشكلة بالسكون حينئذ[4] ".

وفي هذه الحالة يتمُّ تحويل صوت الهمزة إلى حركة من الحركات الطويلة ، وهي الألف والياء و الواو ، مع أنه ليس هناك وجه شبه يجمع بينهما، فالخلاف بينهما كبير :

---

(1) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص36 .

(2) السابق ص52 .

(3) السابق ص87 .

(4) الأصوات اللغوية ص88 .

1- فالألف صوت انطلاقي مجهور ، أي حركة أومصوت على نقيض الهمزة .

2- الهمزة من الحنجرة و الواو من أقصى اللسان ، والياء من وسط اللسان ، مع ما يحاذي الموضعين من الحنك الأعلى.

3- الهمزة صوت انفجاري (شديد) ، وهما انطلاقيان (لينان) .

4- الهمزة صوت ذو وجود صوتي وسياقي (فونوتيكي وفونولوجي) ،أما هما فوجودهما انطلاقي سياقي (فونولوجي) فحسب مهما تكن أحوال وجودهما في المادة اللغوية .

5- الهمزة صوت مجهور أو مهموس أو لا هو بالمهموس ولا بالمجهور ، وهما مجهوران إلا في حالة خاصة وهى حالة الوقف في مثل القَفْو و السَّعْى حيث يمكن أن يتعرضا للهمس في هذا الموقع، وهو ما يقع أحيانًا لحركات أواخر الكلمات في حالة ما سماه القدماء بالروم ، وهى حالة من حالات الوقف ولكن مع عدم وجود وجه الاتفاق بينهما[1].

" فلا مانع من حذف صوت ليقع آخر موقعه ، ولكن لا على سبيل الإبدال ؛ لأن الإبدال بكافة معانيه يتطلب قرابة صوتية ، وهى هنا معدومة ، بل على سبيل التعويض ، مجرد التعويض الموقعي الذي تقتضيه وظيفة الصوت في الدلالة أو غيره ، وربما كان ذلك لدى من يهمزون حفاظًا على سلامة النظام المقطعي . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يتضح لنا من الكتابة الصوتية أن المحذوف لأجل الهمزة لم يكن – على أية حال – واوًا ولا ياء- بل ضمة وكسرة ، وكلتاهما هي الجزء الثاني من عنصري صوت اللين المركب ، أما الجزء الأول فقد بقى على حاله دون تغيير، وهو الفتحة الطويلة ، وبقيت الكسرة الأخيرة في كل منهما رعاية لتكوين المقطع المنبور ، وما كان للحركة المحذوفة قبلها أن تبقى ، لما يترتب على بقائها من اختلال النظام المقطعي في الصيغة الاشتقاقية ، وهو ما تحافظ كل النظم الصوتية بخاصة على بقائه ، وبهذا يتبين أن دعوى القدماء بأن الهمزة بدل من واو أو ياء لا أساس لها عند التحليل[2] " .

---

(1) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص48 . وينظر : الأصوات اللغوية ص48 ، واللهجات العربية نشأة وتطورًا ص210 ، 211 . وإن كان قد تبين لنا أن الهمزة صوت مجهور كما وصفها علماؤنا القدامى وأيدهم بعض المحدثين في ذلك .

(2) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص88 .

وقد عرضت القراءات القرآنية لكثير من صور إبدال الهمزة ، ولكن هذا الإبدال لم يأت في سورة الزخرف إلا من خلال ثلاث صور , تأتي الصورة الأولى للهمزة الساكنة المفردة، ثم اجتماع الهمزتين في كلمة للصورة الثانية، وأخيرًا الصورة الثالثة لاجتماع الهمزتين في كلمتين.

الصورة الأولى : الهمزة الساكنة المفردة:

تأتي الهمزة الساكنة المفردة في القراءات القرآنية وقبلها متحرك بالحركات الثلاث ، فإما أن يكون مفتوح ما قبلها ، أو مكسور أو مضموم ، وقد عرضت سورة الزخرف للحالات الثلاث:

الحالة الأولى : الهمزة الساكنة وقبلها مفتوح

لم ترد هذه الحالة في سورة الزخرف إلا من خلال قراءتين فقط ، قرأ فيهما أبو عمرو بخلاف عنه وأبو جعفر والأزرق وورش والأصبهاني بإبدال الهمزة ألفًا ، وهي قراءة حمزة في الوقف ، وذلك في (وما يأتيهم) في قوله تعالى : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (7) ، و (تأكلون) في قوله تعالى : (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ) (73)[1] .

الحالة الثانية : الهمزة الساكنة وقبلها مكسور:

من خلال قراءتين أيضًا وردت هذه الحالة في سورة الزخرف ، حيث وافق في القراءة الأولى أبو عمرو بخلاف عنه أبا جعفر في إبدال الهمزة ياء ، وكذا جاءت قراءة حمزة في الوقف ، وذلك في (جئتكم) في قوله تعالى : (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ) (24) ، وقوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ)(63) ، وقوله تعالى : (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) (78) ، وفى القراءة الثانية وافق ورش أبا جعفر في (فبئس) في قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) (38)[2] .

الحالة الثالثة : الهمزة الساكنة وقبلها مضموم:

ظهرت هذه الحالة في سورة الزخرف من خلال قراءتين قرأ فيهما أبو عمرو بخلاف عنه وأبو جعفر و الأزرق وورش و الأصبهاني بإبدال الهمزة واوًا ، وهي قراءة حمزة في الوقف ، وذلك في (يؤفكون) في قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (87) ، و(يؤمنون) في قوله تعالى : (وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ)(88)[3] .

---

(1) ينظر : النشر في القراءات العشر 1/390 , 391 .

(2) ينظر : السابق 1/390 ، وإتحاف فضلاء البشر ص75 ، 495 .

(3) ينظر : النشر في القراءات العشر 1/390 ، وإتحاف فضلاء البشر ص57 .

الصورة الثانية : اجتماع الهمزتين في كلمة :

من خلال موضع واحد في سورة الزخرف ظهر اجتماع الهمزتين في كلمة ، حيث تمَّ فيه تحويل الهمزة الساكنة إلى ألف ، وهي صورة من إحدى الصور التي قرئت بها , حيث قرئ فيها بالألف المبدلة من الهمزة الساكنة , وذلك إفراط في التطويل ، وخروج عن كلام العرب ، وذلك في (آلهتنا) في قوله تعالى : (وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلا)(58)[1] .

الصورة الثالثة : اجتماع الهمزتين في كلمتين:

عن طريق إبدال الهمزة الثانية ياء ساكنة بلا مد قرأ الأزرق وقنبل وورش (السماء إله)في قوله تعالى:(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)(84)[2].

فمن خلال الصورة الأولى من صور الإبدال نلاحظ أن صوت الهمزة فيها قد ظهر خاليًا من الحركة مضبوطًا بالسكون مع تحريك ما قبلها بالحركات القصيرة الثلاث – الفتح و الكسر و الضم – ، فالتخفيف قد تمَّ في هذه الصورة عن طريق سقوطها مع تعويض موقعها بالطول ، وذلك بإطالة الصوت الصامت الذي قبلها ، وهي ما يسمى بنبر الطول ، حيث قيل : " أما نبر الطول فلا شبهة في حجازيته ... وفيها ما عوض فيه عن حذف الهمزة بطول الحركة السابقة عليها[3] " .

ومن هنا يأتي نبر الطول عن طريق " ما إذا حل محل نبر الهمزة نبر آخر للحركة التالية بإطالتها أو تليينها ، فالنبر حينئذ نبر مدة أو طول ، يتميز عن سابقه[4] " .

وأما الصورة الثانية والثالثة عند اجتماع الهمزتين في كلمة ، أو كلمتين فالتحويل فيهما قد تمَّ عن طريق المبالغة في التخفيف[5] ، أو المبالغة في الطول ، وهنا أيضًا يتحقق نبر الطول ولكن بصورة مبالغة أشد من الصورة الأولى .

المجموعة الثالثة : التسهيل (بَيْنَ بَيْنَ) :

ذهب القدامى إلى أن " همزة بين بين معناها بين الهمزة المتحركة وبين الحرف الساكن ، الذي هو

---

(1) ينظر : حجة القراءات لابن زنجلة ، تحقيق . سعيد الأفغاني ص 653 – مؤسسة الرسالة – الطبعة الرابعة 1404هـ - 1984م .

(2) ينظر : النشر في القراءات العشر 382/1 ، 383 , وإتحاف فضلاء البشر ص73 ، 174 .

(3) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص151 .

(4) السابق ص37 .

(5) ينظر : إتحاف فضلاء البشر ص73 .

منه حركتها ، فهي تقرب من الساكن ، ولا يبتدأ بساكن ، ولا بما يقرب من الساكن ؛ لأن الساكن يحتاج إلى حركة يوصل بها إلى اللفظ بالساكن أبدًا ، فكنت تحتاج أن تجعلها بين بين ، وتجتلب لها حرفًا متحركًا ، تصل بها إلى النطق بها ، وذلك تغيير وتكلف وخروج عن لغة العرب[1]" .

وهذا يعني أنها إن كانت مفتوحة فهي بين الهمزة و الألف ، وإن كانت مكسورة فهي بين الهمزة والياء ، وإن كانت مضمومة فهي بين الهمزة والواو إلا أنها ليس لها تمكن الهمزة المحققة ، وهي مع ما ذكرنا من أمرها في ضعفها وقلة تمكنها بزنة المحققة[2] .

في حين ذهب بعض المحدثين إلى أن همزة (بَيْنَ بَيْن) لا فرق بينها وبين سقوطها في الكلام إلا من خلال الحركة التي تخلفها ، حيث ذكر الدكتور / إبراهيم أنيس أن همزة (بَيْنَ بَيْن) هي : " عبارة عن سقوط الهمزة من الكلام ، تاركة حركة وراءها ، فالذي نسمعه حينئذ لا يمت إلى الهمزة بصلة بل هي صوت لين قصير يسمى عادة حركة الهمزة ، من فتحة أو ضمة أو كسرة ويترتب على هذا النطق التقاء صوتي لين قصيرين ... ويغلب في معظم اللغات أن تؤدى مثل هذه الحالة إلى صوت لين انتقالي ، ينشأ من الحركتين أو صوتي اللين القصيرين ... ويغلب في معظم اللغات أن تؤدى هذه الحالة إلى صوت لين انتقالي ، ينشأ من الحركتين أو صوتي اللين القصيرين . والذي يؤيد ما ذهب إليه بشأن نطق الهمزة بين بين ، أن مثل هذه القراءة لا تكون إلا حين تحرك الهمزة بحركة ما ، أما الهمزة المشكلة بالسكون فلا تقرأ بين بين[3] " .

وأيَّده في هذا الرأي الدكتور/ عبد الصبور شاهين ، حيث علَّق في كلامه على رأي القدامى ثم حقق هذه الهمزة عن طريق إحدى الأجهزة الصوتية كما ذكر : " فالهمزة (البين بين) هي في رأي القدماء صوت ساكن ، ولكنه ضعيف غير متمكن ، وهي برغم هذا تقع موقع المحققة ، وهي بزنتها ، ويطلقون عليها أيضًا : الهمزة المسهلة ، والملينة ، والمقصود دائمًا تخفيف نطقها . ولعلنا إذا عدنا إلى الوصف العلمي للهمزة ندرك أنها ليس لها سوى صورة واحدة فحسب ، هي ما أطلق عليه

---

(1) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ، مكي بن أبي طالب القيسي .تحقيق د. محيي الدين رمضان 96/1 – مؤسسة الرسالة – الطبعة الرابعة – 1407هـ - 1987م .

(2) سر صناعة الإعراب لابن جني . تحقيق د. حسن هنداوي 48/1 – دار القلم – دمشق – الطبعة الأولى 1405هـ - 1985م .

(3) الأصوات اللغوية ص88 .

المحدثون (الحبسة الحنجرية) ، فإذا اختل آداء هذه (الحبسة) فقدت الهمزة وجودها . وقد قمنا في دراستنا للماجستير ببعض التجارب المعملية على جهاز (سبكتروجراف) أثبتنا بها هناك أن (بين بين) ليس في الواقع سوى حركة . ونضيف هنا أن (بين بين) يعنى في الواقع سقوط الهمزة أساسًا ، واتصال الحركتين قبلها وبعدها مباشرة ، بحيث يتكون لدينا المزدوج بالمعنى الكامل ، وفي هذه الصورة للمزدوج يضعف وجود الانزلاق الذي تنشأ عنه أنصاف الحركات (الواو و الياء) ، من ثم نعده دليلا على أن الهمزة ليست في الغالب سوى وظيفة صوتية ، يعمد إليها (المحقِّقُون) ، وهم الذين يريدون أن يؤكِّدوا نبرهم للمقطع المنبور ، أما المخفِّفون فلم يريدوا هذا التأكيد ، واكتفوا بهذا المزدوج الذي يعني تتابع حركتين لهما من الطول أو التوترما يؤدي مهمة النبر ويبرز وجود المنبور[1]".

وعلى ذلك فالهمزة المسهلة (بَيْن بَيْن) هي " النطق بحركتين متواليتين مع فاصل خاطف بينهما ، هو الذي يتمثل في الانزلاق بين الحركتين عند اختلافهما[2] ".

إذًا فهي في رأيهما عبارة عن " وقيفة تفصل بينهما في النطق ، ومن ثم يتشكل من مجموع الحركتين القصيرتين حركة طويلة[3]... " .

ولكن نطق الهمزة المسهلة بهذه الصورة التي تمَّ وصفها معناه فناء هذه الهمزة وبقاء حركتها ، وهذا يناقض حقيقة الواقع النطقي لهذه الهمزة .

وقد رَدَّ الدكتور/ محمد حسن جبل هذا الرأي بقوله " وكذلك يتبين أن القول بأن همزة بين بين لا وجود لها ، وإنما الموجود حركتها هو قول غير دقيق ، بعضه مبني على التسليم بكلام الأوربيين السابق وكلامهم غير صحيح. فهمزة بين بين تتميز عن حركتها بغمز الزمير ، غمزة أخف من غمزة المحققة (ولذا لا تؤدى إلى انغلاق فتحة المزمار ، ولا تُسْبق بانغلاق) ، فهو زمير مغموز يتصل به زمير الحركة السابقة أو التالية له ، وزمير الحركة سَلِس غير مغموز[4] " .

---

(1) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص105 .

(2) السابق ص179 .

(3) أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية ص457 .

(4) المختصر في أصوات اللغة العربية ص77 .

ومن هنا إذا حكمنا على الهمزة المحققة بأنها من الأصوات الشديدة فوصف الهمزة المخففة (بالإبدال أو التسهيل بَيْن بَيْن) تندرج تحت الأصوات الرخوة ، حيث يقول الدكتور/ محمد حسن جبل : " أما الهمزة المخففة بالتسهيل بين بين والهمزة المبدلة حرف مد فكل منهما رخوة ؛ لأن زميرها يخرج والأوتار بينها فتحة ضيقة ، لا يُسْبق زميرها ولا يُلْحَق بإغلاق الأوتار الصوتية فنفَسُها لا يقترن بحبس ، فهي رخوة . ولا يخفى أن الهمزتين (بين بين والمبدلة) تفقدان خصيصة أخرى من خصائص الهمزة المحققة – بجانب فقدهما صفة الشدة هي خصيصة انقطاع زمير الهمزة من أحد طرفيه عما يليه ، فالهمزة المسهلة بَيْن بَيْن والمبدلة يتصل زميرها بزمير ما يسبقهما ويلحقهما ما دام ليس هناك ما يفصلهما عنه ، لكن همزة بين بين تظل موجودة ومتميزة عن الزمير السابق واللاحق بدرجة من العَصْر أقل من عَصْر المحققة وذلك عند بداية آدائها ، وبهذه الدرجة من العصر يتميز زميرها عن زمير الحركة ، وبعض المؤدِّين لها لا يحسن تلك الدرجة من العصر فيؤدِّيها كالهاء – وهذا غلط – ، لكنه يثبت وجودها وتميزها ، أما المبدلة فيحلُّ بدلها محلها ، والمحذوفة لا يحل محلها شيء[1]".

ومن هنا فـ " الهمزة التي " بَيْن بَيْن " وهي همزة متحركة تكون بعد ألف أو بعد حركة فتصير في النطق مجرد خفقة صدرية لا يصاحبها إقفال للأوتار الصوتية نحو " أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ " (المائدة116) . فإذا كانت الهمزة مفتوحة مكسورًا ما قبلها قلبت ياء ، أو مضمومًا ما قبلها قلبت واوًا[2] " .

وقد ظهر أثر تسهيل الهمزة (بين بين) في القراءات القرآنية الخاصة بسورة الزخرف من خلال صورة الهمزة المتحركة ، حيث لا يتحقق التسهيل إلا من خلال هذه الصورة .

وقد تشكَّلت هذه الصورة بعدة أشكال في عدة مواضع من السورة :

الشكل الأول : الهمزة المفردة المتحركة :

من خلال أربعة مواضع على وجه التحديد ، ثلاثة منها لصورة الهمزة المتحركة بعد حركة ، وواحدة لها بعد ساكن (الألف) ظهرت صورة الهمزة المفردة المتحركة .

فالصور الثلاث الأولى خاصة بقراءة حمزة في حالة الوقف ما عدا موضعًا واحدًا قرأ فيه أبو

---

(1) السابق ص76 ، 77.

(2) اللغة العربية معناها و مبناها د. تمام حسان ص53 – الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979م .

جعفر وورش بالتسهيل ، الأولى منها تحمل عنوان (الهمزة المفتوحة بعد فتح) ، وذلك في (سألتهم) في قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (9) ، وقوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (87)[1] .

وكذلك قرأ أبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية وورش عن نافع في (أفأنت) في قوله تعالى:(أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) (40)[2] , وأما الصورة الثانية فهي تحمل عنوان (الهمزة المكسورة بعد فتح) ؛ وذلك في (لئن) في قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (9) ، وقوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)(87)[3] , وأما الصورة الثالثة فهي تحمل عنوان (الهمزة المضمومة بعد كسر) ، وذلك في(يَتَّكِئُونَ) في قوله تعالى : (وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) (34)[4] .

وأما الصورة الرابعة فهي صورة (الهمزة المتحركة بعد صائت طويل) ، فمنها ما هو خاص بقراءة حمزة في حالة الوقف ، وذلك في (آباءنا) في قوله تعالى : (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ)(22) ، و (آباءكم) في قوله تعالى : (قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ)(24) ، و(آباءهم) في قوله تعالى : (بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ) (29)[5] .

ومن هذه الصورة قراءة أبى جعفر بتسهيل همزة (إسرائيل) مع مده وقصره في قوله تعالى : (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلا لِبَنِي إِسْرائِيلَ) (59)[6] .

الشكل الثاني : اجتماع الهمزتين في كلمة :

ظهر أثر هذا الموضع في سورة الزخرف من خلال قراءتين :

القراءة الأولى : بهمزتين مفتوحة زائدة للاستفهام فمضمومة مسهلة كالواو مع سكون الشين في (أَأُشهدوا) , قرأ نافع وأبو جعفر فأدخلا همزة التوبيخ على (أشهدوا) فعلا رباعيًّا مبنيًّا للمفعول

(1) ينظر : النشر في القراءات العشر 1/ 483 ، وإتحاف فضلاء البشر ص87 .
(2) إتحاف فضلاء البشر ص496 .
(3) ينظر : النشر في القراءات العشر 1/ 483 ، وإتحاف فضلاء البشر ص87 .
(4) ينظر : النشر في القراءات العشر 1/ 397 ، وإتحاف فضلاء البشر ص385 .
(5) ينظر : النشر في القراءات العشر 1/ 433 ، وإتحاف فضلاء البشر ص66 .
(6) ينظر : إتحاف فضلاء البشر ص79 .

، وذلك في قوله تعالى : (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلونَ)(19).

القراءة الثانية : بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية بين بين وألف بعد الثانية المسهلة في (أألهتنا) , قرأ نافع و ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ورويس والأزرق ويعقوب وابن محيصن و اليزيري والحسن ، وذلك في قوله تعالى : (وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلا)(58)[1] .

" وحجة من قرأ بهمزة واحدة ومدة مطولة أنه لما اجتمع له همزتان محققتان في كلمة ثَقُل ذلك لثقل الهمزة وبعد مخرجها وتوالي ثلاث همزات ، فحقَّق الأولى إذ لا سبيل إلى تخفيف الهمزة أولا ثم خفف الثانية بين الهمزة والألف وأبقى الثالثة الساكنة على لفظها على البدل[2] ".

الشكل الثالث : اجتماع الهمزتين في كلمتين :

من خلال موضع واحد في سورة الزخرف قرأ قالون والبزي بتسهيل الهمزة الأولى مع المد والقصر مع تحقيق الثانية ، في حين قرأ بتسهيل الثانية ورش من طريق الأصبهاني وأبو جعفر ورويس والأزرق وقنبل مع تحقيق الأولى ، وذلك في (السماء إله) في قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)(84)[3] .

فهمزة بين بين في هذه الصور القرآنية تنطق بصورة أضعف من صورة الهمزة المحققة ، فهي بين التحقيق والتخفيف ، ولكن ليس كما يرى بعض المحدثين من أن هذه الهمزة " ليست في الواقع سوى فاصل بين عنصرين حركيين ، لضرورة نبرية ، ولكنهما سرعان ما يتصلان عند زوال هذه الضرورة ، وسقوط الهمزة لسبب ما... وقد أثبتنا علميًّا أن (بين بين) هذه لا تعنى وجود همزة إطلاقًا ، وإنما تتابع حركتين يكونان في الحقيقة نوعًا من المزدوج ، خفيف الانزلاق ، ومن عنصره

---

(1) ينظرهاتان القراءتان في : السبعة في القراءات لابن مجاهد . تحقيق د. شوقي ضيف ص587 – دار المعارف – الطبعة الثالثة 1400هـ , والكشف في القراءات السبع 257/2 ، 260 ، 261 , والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني ص32 , 196 – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان –الطبعة الأولى 1416هـ - 1996م ، وحجة القراءات ص 653 ، والنشر في القراءات العشر 368/2 ، 369 ، وإتحاف فضلاء البشر ص 65 ، 495.

(2) الكشف في القراءات السبع 261/2 .

(3) ينظر : إتحاف فضلاء البشر ص72 ، 73 ، 174 .

الأول إلى عنصره الثاني ولا شيء أكثر من هذا ... والواقع أن النبر لم يغير موقعه ، حيث إن التقسيم المقطعي لم يختلف في حالة إسقاط الهمزة عنه في حال وجودها ، غاية ما هنالك أن الذين تعودوا النطق بالمزدوج خفيفًا ، وهم أهل الحجاز ، كانوا يكتفون بقدر يسير من الضغط في موقعه ، بقدر ما يسمح ذوقهم اللغوي ، وفي حدود وصف القدماء له (بين بين) ، وأعانهم على ذلك – على ما سبق أن أشرنا – تعودهم الأناة في نطقهم ، والتؤدة في إيراد المقاطع منبورة أو غير منبورة ، وهو السبب الذي أغناهم أيضًا عن الهمزة كوسيلة للنبر ، على حين احتاجها البدو في نبرهم نظرًا لسرعة آدائهم ، والتماسهم أن يضغطوا بعض المقاطع ، بصورة واضحة ، حيث يحسون بضرورة هذا الضغط للتقليل من عيب السرعة في الأداء[1]... " .

ونطق الهمزة (بَيْن بَيْن) لا يقتصر أثره على البيئة الحجازية بل ظهر في جميع البيئات ، " فالنطق " بين بين " ظاهرة فاشية في كل البيئة الفصيحة ، البدوية والحضرية ، ويكون لجوء تميم لإطالة حركة همزة الأولى المخففة تعويضًا منهم لنبر التوتر بنبر الطول ، فبدلا من أن يوالوا بين توترين ، والوا بين توتر وطول ، وهو اتجاه منهم إلى التماس الرقة في النطق ، إلى جانب تحقيقهم بخاصتهم النبرية على أتم الوجوه . وخلاصة القول في توالى الهمزتين أن بعض العرب من تميم – دون شك – قد حققها ، كيفما كان ، وعليه قراءة حفص المشهورة ، وبعضهم (وهم من تميم أيضًا) حققوا واحدة ، وقد يطيلون حركتها ، وخففوا الأخرى ... وبعضهم (وهم أهل الحجاز) خففوا الاثنين (بين بين) وبعض نادر منهم أبرز صورة الانزلاق عند اختلاف حركتيها ، فتأكد وجود المزدوج[2] " .

وهكذا صوَّر القرآن الكريم بجميع قراءاته الواقع اللغوي الذي تشهده البيئة العربية ، وما تميل إليه بعض القبائل وما تحرص عليه القبائل الأخرى ، فلم ينكر على أحد من بيئتي الحجاز وتميم قراءتها الهمزة بالتحقيق أو التخفيف ، بل أيدت القراءات القرآنية جواز الأمرين تيسيرًا لحفظه وتدبرًا لمعانيه .

---

(1) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص173 ، 174 .

(2) السابق ص179 ، 180 .

المبحث الثاني : الإمالة

ظاهرة أخرى يتحقق في بعض جوانبها قانون " الاقتصاد في الجهد العضلي والانسجام بين أصوات اللغة " وهي ظاهرة الإمالة ، حيث قيل عن المشهور فيها هي : " أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء[1] " .

وهي في العرف الحديث : " إحدى الظواهر الخاصة بنطق الفتحة الطويلة نطقًا يجعلها بين الفتحة الصريحة والكسرة الصريحة[2] ".

وقد ظهرت الإمالة في اللغة العربية كأثر من آثار التقريب بين الصوائت الطويلة والقصيرة على حد سواء ، وذلك من خلال أصوات الكسرة والياء والفتحة والألف اعتمادًا على صورة التناسب النطقي بين هذه الأصوات داخل حدود الكلمة العربية ، وقد يكون هذا التقريب اعتمادًا على بيان الأصل اليائي ، وذلك لأن :" إمالة الفتح إلى الكسر يجب في الحقيقة أن تعزى بصفة عامة إلى إحدى عاملين : 1- الأصل اليائي 2- الانسجام بين أصوات اللين[3] " .

إذًا " فالفتح والإمالة صوتان من أصوات اللين ، سواء كانا قصيرين أو طويلين ، وأصوات اللين القصيرة في الاصطلاح الحديث هي كان ما يسميه القدماء بالحركات ، أما أصوات اللين الطويلة فهي ما كانوا يسمونه بألف المد وياء المد وواو المد ، ولا فرق بين القصيرة والطويلة إلا في الكمية ، فمخرج الفتحة ووضع اللسان معها هي نفس مخرج ألف المد ووضع اللسان معها ، والفرق بينهما فرق في الكمِّيَّة . وكذلك الكسرة وياء المد متماثلتان في المخرج ووضع اللسان ، كما أن الضمة وواو المد متماثلتان فيهما أيضًا ، فلا فرق إذًا بين أن تمال الفتحة أو تمال ألف المد ؛ لأن العملية العضوية في الحالتين واحدة ... وقد وضع المحدثون مقاييس مشهورة لأصوات اللين ... وما سماه القدماء بالفتح هو أحد تلك المقاييس وما سموه بالإمالة مقياس آخر منها ، واللسان مع الفتح يكاد يكون مستويًا في قاع الفم ، فإذا أخذ في الصعود نحو الحنك الأعلى بدأ حينئذ ذلك الوضع الذي يسمى بالإمالة ، وأقصى ما يصل إليه أول اللسان في صعوده نحو الحنك الأعلى ، هو ذلك المقياس

---

(1) النشر في القراءات العشر 2/ 29، 30.

(2) علم اللغة العربية د.محمود فهمي حجازي ص226- دار غريب – القاهرة .

(3) في اللهجات العربية ص60.

الذي يسمى عادة بالكسرة طويلة أو قصيرة ، فهناك إذًا مراحل بين الفتح والكسر ، لا مرحلة واحدة . من أجل ذلك كان القدماء يقسمون الإمالة إلى نوعين : إمالة خفيفة وإمالة شديدة ، وهكذا نرى أن الفرق بين صاحب الفتح وصاحب الإمالة ليس إلا اختلاف في وضع اللسان مع كل منهما حين النطق بهذين الصوتين , واللسان في حالة الإمالة أقرب إلى الحنك الأعلى منه في حالة الفتح[1] ".

وهنا نستطيع أن نقول بأن الحركات أو الصوائت في اللغة العربية ليست على هامش الدائرة اللغوية مقارنة بالصوامت فيها ، ولكنها في داخل هذه الدائرة ؛ لأن صورة الكلمات العربية لا تبرز إلى الوجود بصورة منطوقة ومكتوبة إلا من خلال الصوامت والصوائت ، فبهما معًا تكتمل الدائرة .

وإذا كانت الصوامت تعيش في صراع مستمر مع الهواء الخارج من الرئتين إما بالحبس أو التضييق فليست الصوائت كذلك ؛ لأن " الصفة التي تجمع بين كل أصوات اللين هي أنه عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين مارًّا بالحنجرة ، ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم في ممر ليس فيه حوائل تعترضه فتضيق مجراه كما يحدث مع الأصوات الرخوة ، أو تحبس النفس ولا تسمح له بالمرور كما يحدث مع الأصوات الشديدة ، فالصفة التي تختص بها أصوات اللين هي كيفية مرور الهواء في الحلق والفم وخلو مجراه من حوائل أو موانع[2] ".

وقد اهتم اللغويون في العصر الحديث بهذه الصوائت اهتمامًا بالغًا ظهر أثره في تلك المقاييس التي وضعها " دانيال جونز " لهذه الصوائت ، وذلك تحت عنوان " الحركات المعيارية " ، التي تصلح أساساً لكل اللغات .

وقد بدأ " دانيال جونز " عمله " بأن نظر إلى عضوين مهمين كل الأهمية في تكوين الحركات ، وهذان العضوان هما الشفاه واللسان ، إذ هما العضوان الرئيسيان في تعديل شكل مجرى الهواء الصاعد من الرئتين خلال الفم ، أما بالنسبة للسان فقد نظر إليه جونز باعتبارين اثنين هما :

1- وضعه بالنسبة للحنك الأعلى من حيث الارتفاع والانخفاض .

---

(1) السابق ص56، 57. وينظر : الأصوات اللغوية ص39، والمدخل إلى علم اللغة ص96، واللهجات العربية نشأة وتطورًا ص202.

(2) الأصوات اللغوية ص26 . وينظر : علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص124، وعلم الأصوات ص217.

2- الجزء المعين من اللسان الذي يحدث فيه الارتفاع و الانخفاض . أما بالنسبة للشفتين فنظر إليهما من حيث:

1- ضمهما.

2- وانفراجهما.

3- ومن حيث وضعهما في وضع محايد. وبهاتين النظريتين توصل جونز إلى ثمان حركات معيارية[1] ... " .

وبمقارنة تلك المقاييس والمعايير العامة التي وضعها (جونز) مع الحركات أو الصوائت في العربية يمكن أن يتضح التشابه على النحو الأتي :

أ- الكسرة والياء : ظهر هذا المقياس باعتباره أول مقاييس أصوات اللين من خلال أن أقصي ما يصل إليه أول اللسان متجهًا نحو الحنك الأعلى , بحيث لا يحدث للهواء المارّ بينهما أي نوع من الحفيف ، يعد موضعًا مضبوطًا بين أصوات اللين ، وقد رمز له بالرمز (i) وهو ما يشبه الكسرة الرقيقة في اللغة العربية حين يكون قصيرًا ، ويشبه مايسمى بياء المد حين يكون طويلا ... فما سماه القدماء بياء المد في مثل " كريم و قتيل " يشبه إلى حد كبير المقياس الأول الذي يرمز له في علم الأصوات بالرمز (i) حين يكون هذا المقياس طويلا ، أي حين يطول زمن النطق به ، أما حين يقصر زمن النطق به فهو قريب الشبه بالكسرة المرققة .

ب- الفتحة و الألف : وقد تكون المقياس الثاني بأن هبط اللسان إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه في الفم ، بحيث يستوي في قاع الفم ، مع انحراف قليل في أقصى اللسان نحو أقصى الحنك ، فتحدد لنا بهذا مقياس آخر ، يرمز له عادة بالرمز (a) ، وهو ما يشبه بالفتحة المفخمة في اللغة العربية حين يكون قصيرًا ، ويشبه ما يسمى بألف المد المفخمة ، حين يكون طويلا ، وبين أقصى ما يصل إليه اللسان في صعوده نحو الحنك الأعلى وأقصى ما يصل إليه في هبوطه بقاع الفم ، استنبط المحدثون ثلاث مراحل عند كل منها يتكون صوت لين خاص ، فاللسان من هبوطه من وضع (i) إلى وضع (a) يمر بمراحل ثلاثة رمز لها بالتدريج (aEe) .

ج- الضمة و الواو : إذا كانت مرحلة الكسرة والياء ، والفتحة و الألف تمت عن طريق النظر

---

[1] علم الأصوات ص225 , 226.

إلى أول اللسان واتجاهه نحو الحنك الأعلى ، فهنا قد نظروا إلى " نسبة صعود أقصى اللسان نحو الحنك ، فآخر ما يصل إليه أقصى اللسان في صعوده نحو أقصى الحنك ، ليكون الفراغ بينهما من السعة ، حيث لا يحدث للهواء أي نوع من الحفيف ، هو المقياس الأخير لأصوات اللين ، وهو ما يرمز إليه بالرمز (U) ، وهو الذي يشبه الضمة المرققة في اللغة العربية حين يكون قصيرًا ، ويشبه ما يسمى بواو المد حين يكون طويلا[1] .

وقد اعتمدت الإمالة على المقياس الأول والثاني من هذه المقاييس الثلاثة ، حيث يتم من خلالها التعامل مع المنطقة الأمامية دون المنطقة الخلفية ، " فاللغة العربية تحتوي على ثلاث حركات من حيث النوع حركتان منها أمامية هي الفتحة والكسرة وحركة واحدة خلفية هي الضمة ، وحينما نتأمل ظاهرة الإمالة من الناحية الصوتية المحضة نجد أنها تنحصر في المنطقة الأمامية ، فهي ليست إلا عبارة عن تغيير نقطة لمخرج الحركة المنفتحة تغيرًا طفيفًا ، وانتقالها نحو درجة نصف الانفتاح ، ونستطيع أن نبيِّن على وجه التحديد أن الألف الممالة تقترب نحو الحركة المعيارية رقم (2)[2] ... ".

" فإذا كانت الإمالة شديدة أمكن أن تكون الفتحة قريبة الشبه بالمقياس e[3]".

ومن هنا فالإمالة " هي في مفهومنا الصوتي المعاصر ، أية حركة واقعة بين أعلى حركة وأدنى حركة ، (سواء أكانت الحركة أمامية أم خلفية) , فأعلى حركة أمامية هي الكسرة (والكسرة الطويلة وهي ياء المد) ، وأدنى حركة أمامية هي الفتحة المرققة (والفتحة الطويلة وهي الألف) ، وأي حركة واقعة بين الكسرة والفتحة المرققة ، أو بين ياء المد والألف المرققة ، هي حركة ممالة ، كذلك ، فإن أية حركة واقعة بين الضمة والفتحة المفخمة (أو بين واو المد والألف المفخمة) هي في حقيقتها إمالة ، ولكن علماء العربية و القراءات لا يقصدون بالإمالة إلا ما كان بين أعلى حركة أمامية وأدنى حركة أمامية[4] ".

ولما كانت الإمالة في عالم العربية تأتي تحقيقًا لأحد هدفين ، هما الانسجام بين أصوات اللين وبيان

---

(1) الأصوات اللغوية ص33 , 34 . وينظر : علم الأصوات ص227، 228 . وتقرأ الرموز من اليمين في الفتحة والألف .

(2) الإمالة والتفخيم في القراءات القرآنية حتى القرن الرابع الهجري دراسة مع تحقيق كتاب الاستكمال لابن غلبون . د.عبد العزيز على سفر 1/248-الكويت-الطبعة الأولى 1422هـ-2001م.

(3) الأصوات اللغوية ص41. وينظر : القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية (منهج لساني معاصر) د.سمير شريف استيتية ص223-عالم الكتب الحديث –المملكة الأردنية الهاشمية 2005 م.

(4) القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية ص223 .

الأصل اليائي تم تقسيمها من خلال القراءات القرآنية في سورة الزخرف اعتمادًا على هذين الأصلين ، والذي يرجع فيهما أسباب الإمالة إلى الكسرة والياء ، " والمهم في هذه الأسباب بأن الإمالة تنتظم التأثر الرجعي والتقدمي أو كليهما ، فالإمالة للكسرة والياء المتقدمين تأثر تقدمي ؛ إذ يتأثر الصوت الثاني بالأول ، والإمالة للكسرة والياء المتأخرتين تأثر رجعي إذ يتأثر الأول بالثاني[1] ".

القسم الأول الانسجام بين أصوات اللين :

إن عملية التحويل التي تتم بين الصوائت القصيرة أو الطويلة عن طريق الإمالة ليست من باب التحويل المطلق ، وإنما هي محاولة للتقريب بين هذه الأصوات كضرب من ضروب التجانس والتناسب ، أو ما يسمى بالتأثر الجزئي .

" فالإمالة هنا ظاهرة من ظواهر المماثلة ، وتعني المماثلة أن صوتًا من الأصوات في كلمة أو ما يشبه الكلمة أثَّر في صوت آخر في نفس الكلمة فجعل نطقه قريبًا من نطقه ، أي جعل نطقه مماثلا لنطقه[2] ".

ومن خلال هذا التأثير ظهرت (إمالة المناسبة) ؛ وذلك " لأن هذه الموافقة بين الحركات ضرب من تجانس الصوت وانسجامه ليؤدي إلى الإسراع والخفة[3] ".

ومن خلال قراءة واحدة ظهر أثر الانسجام بين أصوات اللين في سورة الزخرف وذلك في لفظة (آثارهم) , حيث قرأ أبو عمرو والدوري عن الكسائي وابن ذكوان برواية الصوري واليزيدي بإمالة الألف التي بعدها راء في قوله تعالى : "... وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ" (22) , " وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ" (23) , في حين قرأ الأزرق وورش بالتقليل فيها[4] .

وإذا كانت الإمالة قد تحققت في القراءة الأولى عن طريق تحويل الألف الطويلة إلى ياء بسبب صوت الكسر , وهو سبب من الأسباب اللفظية التي تبيح الإمالة , فإن الإمالة قد قويت بالإضافة إلى سبب آخر وهو صوت الراء في الكلمة .

فصوت الراء في الإمالة حالة خاصة , لذلك ومن خلال عنوان " صوت الراء في الإمالة "

---

(1) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ص137.

(2) علم اللغة العربية ص226، 227.

(3)اللهجات العربية نشأة وتطورًا ص281.

(4) ينظر : الإمالة والتفخيم في القراءات القرآنية 576/2،والنشر في القراءات العشر 2/ 54، 55، وإتحاف فضلاء البشر ص83.

يمكن أن تدرس هذه القراءة .

فقد ذكر العلماء أن صوت الفتحة الطويلة يمكن أن يمال إذا وقع قبل حرف الراء , ولكن بشرط أن تكون مكسورة , وتكون الفتحة من غير ياء , وكونها متصلتين .

والذي سوَّغ الإمالة في هذه الحالة هو صورة التناسب بين كسرة الراء واعتباره سببًا من أسباب الإمالة , ثم مضاعفة صوت الكسر باعتبار الراء صوت يتسم بصفة التكرير , فصوت الراء عندما يضبط بالحركات الثلاث فتلك الحركات تخرج بصورة مضاعفة من كسرتين وفتحتين وضمتين , ومن هنا قويت الإمالة مع الكسرة , والتي تعد بمثابة كسرتين لأنها من لوازم الإمالة .

فصوت الراء " إذا نطقت به خرج كأنه متضاعف , فإذا كانت مكسورة فهي تقوى الإمالة أكثر من قوة غيرها من الحروف المكسورة ؛ لأن الكسرة تتضاعف فهي من أسباب الإمالة[1] ".

ويتسم صوت الراء بالتكرار نظرًا " لتكرار ضربات اللسان على مؤخر اللثة تكرارًا سريعًا ... ويكون اللسان مسترخيًا في طريق الهواء الخارج من الرئتين ، وتتذبذب الأوتار الصوتية عند النطق به[2] ".

ومن هنا فإنتاج صوت الراء يتم عن طريق " أن يلامس اللسان أصول الثنايا في حركات تشبه الضربات السريعة المتتالية , وهذا ما يحدث في إنتاج الصوت (ر) مشكلة بالسكون كما في (ضَرْب) (مصدر ضرب يضرب) ؛ ولذلك تُوصف الراء بأنها من الأصوات المكررة ، وتستطيع أن تكتشف تلك الخصوصية بنفسك بأن تحيط ذقنك بباطن يدك ثم تنطق بالصوت (ر) , وإن الشيء الذي تحملق فيه يهتز أمام ناظريك أيضًا , وهذا من تأثير الضربات المتتالية للسان لمقدم اللثة مضافًا إليها بالطبع خصوصية الجهر ، فالراء صوت مجهور ، وللراء صورة نطقية أخرى ، فقد يكون مطبقًا كما في (حرَم) ، وقد يكون احتكاكياً كما في (مُتْرَف)[3] " .

ولذلك فالإمالة في (آثارهم) جاءت نتيجة صوت الكسر ، وقويت معها باعتباره واقعًا على صوت الراء ، فكأن الكسرة فيه كسرتين ، وهى من أقوى أسباب الإمالة .

وهذا هو الجنس الأول من جنسي الإمالة ، وهو الشائع في اللهجات الدارجة ، ومنه ما أماله

---

(1) الإمالة في القراءات واللهجات العربية د.عبد الفتاح إسماعيل شلبي ص234-دار الشروق –الطبعة الثالثة 1403هـ-1983م . وينظر :شرح المفصل لابن يعيش 61/9 – عالم الكتب – بيروت .

(2) علم الأصوات ص345، 346.

(3)الإمالة والتفخيم 226/1.

بعض القراء ، حيث ذكر برجشتراسر أن " الإمالة جنسان ، الأول : هو تنوع نطق الفتحة الممدودة ، تشبيهًا لها بالحرف المجاور لها ، وسائر حركات الكلمة ... ومن هذا الجنس كل ما يوجد من الإمالة في اللهجات الدارجة أو أكثره ، ومنه أيضًا ما أماله القراء البصريون ، وأشهرهم أبو عمرو ، وبعض الكوفيين والمدنيين ، كإمالة الألف الممدودة قبل راء مكسورة ، في مثل (أبصارهم) و (حمارك) ، وهذا الباب واسع جدًّا[1] ".

القسم الثاني : الأصل اليائي:

إذا كانت الإمالة في بعض الأحيان تهدف إلى ضرب من ضروب التجانس والتناسب ، فإن الأصل اليائي هو من أهم أهدافها ، فقد ذكر برجشتراسر أن "الجنس الثاني ، وهو أهم الجنسين : إمالة مالا داعي لإمالته في الحروف المجاورة للفتحة الممالة ، ولا في سائر حركات الكلمة . ومن هذا الجنس ، ما أومأ إلى إمالته الإملاء ، وبالأخص رسم القرآن بياء تكون حرف المد ، بدل الألف ؛ نحو " رَمَى " . ومن المهم أن الياء أثبت في رسم القرآن ، قبل الضمائر أيضًا ؛ نحو "رَمَيها" ، والإملاء العادي أبدلها بالألف في هذه الحالة ، فكانت ، " رماها " ، فنرى من رسم القرآن أن الفتحة الممدودة ، كانت ممالة عند الحجازيين ، في أواخر كثير من الكلمات ؛ نحو : "إلى"و "إحدى" و "رمى" وما يشابهها في أن لامه ياء ، و"رماها" إلى آخره[2] " .

وقد تم تصنيف الإمالة في هذا القسم في سورة الزخرف إلى ثلاثة أصناف : -

الصنف الأول : الأسماء :

من خلال ستة أسماء ظهرت صورة الإمالة في سورة الزخرف وهي :

1- بأهدى في قوله تعالى : (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ)(24).

2- الدنيا في قوله تعالى : (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(32) ، وقوله تعالى : (وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(35).

3- موسى في قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ) (46).

4- الملائكة في قوله تعالى : (فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)

---

(1) التطور النحوي . برجشتراسر د.رمضان عبد التواب ص59- القاهرة – دار الرفاعي – الرياض – 1402هـ -1982م.

(2) السابق ص60.

(53) ، وفي قوله تعالى : (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) (60) .

5- عيسى في قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ)(63) .

6- نجواهم في قوله تعالى : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) (80).

الصنف الثاني : الأفعال :

تحقَّقت الإمالة في سورة الزخرف في خمسة أفعال وهي :

1- مضى في قوله تعالى : (وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ)(8).

2- أصفاكم في قوله تعالى :(أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ)(16) .

3- شاء في قوله تعالى : (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ)(20) ، و(نشاء) في قوله تعالى : (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) (60) .

4- جاءهم في قوله تعالى : (بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ) (29) ، وفى قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ) (30) ، وفي قوله تعالى :(فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ) (47) ، و(جاء) في قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ)(63) ، و(جاءنا) في قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) (38) .

5- نادى في قوله تعالى : (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ) (51) .

الصنف الثالث : الحروف :

لم ترد الحروف في باب الإمالة في سورة الزخرف إلا نادرًا ، حيث لم يتحقق لها وجود إلا في صورة ثلاثة حروف فقط وهي :

1- حم في قوله تعالى : (حم) (1) .

2- بلى في قوله تعالى : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (80) .

3- فأنَّى في قوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (87).

وقد ظهرت هذه التصنيفات الثلاثة في باب الإمالة من خلال تلك القراءات الصحيحة التي

قرأ بها بعض القراء السبعة ، فإن حمزة والكسائي أمالوا كل ألف منقلبة عن ياء ، حيث وقعت في القرآن في اسم أو فعل . في الأسماء نحو الهدى ... ونحو موسى وعيسى ... و الأفعال نحو : أتى وأبى وسعى ... وعرف ذوات الياء من الأسماء بالتثنية ، ومن الأفعال برد الفعل إليك ، فإذا ظهرت الياء فهي أصل الألف ، وإن ظهرت الواو فهي الأصل أيضًا ، فتقول في اليائي من الأسماء كالمولى و الفتى : موليان وفتيان ... وفي الواوي منها كالصفا : ... صفوان ... وتقول في اليائي من الأفعال نحو أتى ورمى وسعى : أتيت ورميت وسعيت ... وكذلك يميلون كل ألف تأنيث جاءت من فعلي مفتوح الفاء أو مضمومها أو مكسورها نحو موتى ومرضى والدنيا ... وألحقوا بذلك يحيى وموسى وعيسى ... وكذلك أمالوا ما رسم في المصاحف بالياء نحو متى وبلى ... وأنى وهي للاستفهام نحو (أَنَّى شِئْتُمْ) (البقرة 223) .

وقد وافقهم ورش في إمالة جميع هذه المواضع ما عدا (جاء) وملحقاتها ، ووافقهم أبو عمرو في إمالة (الدنيا) ، و(موسى) ، و(نجواهم) ، ووافقهم ابن ذكوان في (جاء)[1] .

وفي إمالة فواتح السور (حم) قرأه ابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي بإمالة الحاء فيهن ، وقرأ ورش وأبو عمرو بين اللفظين في الحاء وفتح الباقون[2] .

وقد ظهرت هذه التصنيفات الثلاثة في باب الإمالة من باب التنبيه على الأصل اليائي ؛ وذلك لأن التنبيه على هذا الأصل هو الأصل في إمالة هذه الأسماء ، وألحق بها موسى وعيسى على التشبيه بها ، وكذلك في الأفعال للتنبيه على هذا الأصل وذلك في المتطرف منها .

وإن كان بعض العلماء قد ذكروا للفعل (جاء) و(شاء) عللا أخرى ، حيث ذكر مكي بن أبي طالب أن " علة الإمالة في ذلك أنه أمال ليدل على أن الحرف منها ينكسر عند الإخبار في قولك جئت وشئت ... فدل بالإمالة على أن الأول مكسور منها عند الإخبار فعملت الكسرة المقدرة فأميلت الألف لها . قال أبو محمد : وهذه الأفعال يفضل بعضها بعضًا في قوة الإمالة فيها فأقواها في الإمالة جاء وشاء ، وذلك أن فيها أربع علل تقوي الإمالة بها **إحداها:** أن الأول ينكسر عند الإخبار في قولك جئت وشئت ، **والثانية :** أن الألف التي هي عين الفعل الممالة أصلها الياء فيهما ، **والثالثة :** أن

(1) ينظر : النشر في القراءات العشر 2/41 ، 43 , والإمالة والتفخيم في القراءات القرآنية 2/576، 577.
(2) الكشف في القراءات السبع 1/188.

الهمزة في آخرها تشبه الألف لأنها أختها في قرب المخرج وفي أنها تبدل من الهمز كثيرًا فصار كأن في آخرها ألفًا فقويت الإمالة لذلك ، **والرابعة :** أن العين في المستقبل منها مكسورة فأميلت الألف في الماضي لتدل على كسرة العين في المستقبل كما أميل (خاف) لكسرة الخاء في الإخبار ، فهي إمالة لشيء مقدر في الكلام فيهما ، وفي إمالة (شاء) مزية القوة على إمالة جاء ؛ لأن مستقبل شاء جاء على مثال مستقبل فعِل – بكسر العين – ؛ لأنه جاء على يفعل – بفتح العين – لأجل الهمزة ، وأصل عينه الكسرة كما كان في يجيء فكأن العين من (شاء) يشبه العين من (خاف) التي أصل عينها الكسر فقويت الإمالة في (شاء) لاجتماع خمس علل , فيها تقوى الإمالة , ولذلك خصها ابن ذكوان بالإمالة دون غيرهما[1] ".

وتوجيه الإمالة في باب الأسماء والأفعال للتنبيه على الأصل اليائي فواضح جلي ، ولكن أن تقع الإمالة في باب الحروف ومنها (بلى) ، و(أنى) فهو ما بحاجة إلى وقفة .

حيث قيل عن علة الإمالة في فواتح السور (حم) : "إن هذه الحروف ليست بحروف معان كـ "ما " و"لا" إنما هي أسماء لهذه الأصوات الدالة على الحروف المحكية المقطعة والأسماء لا تمتنع إمالة ألفها ما لم تكن من الواو وليست الألف فيها من الواو ، ويدل على أنها أسماء أنك تخبر عنها فتعربها فتقول : حاؤك حسنة وصادك محكمة وإذا عطفت بعضها على بعض أعربتها كالعدد ، فلما كانت أسماء أمالها من أمالها ليفرق بالإمالة بينها وبين الحروف التي للمعاني التي لا تجوز إمالتها نحو : ما ، ولا ، وإلا ، وإنما لم تجز إمالة هذه الحروف ليفرق بين الحرف والاسم ، ولو سميت بهذه الحروف جازت إمالتها[2] " .

ذكر صاحب الكشف عن إمالة الحرف الثاني قوله : " فأما بلى فهو حرف لكن أصلها بل ثم زيدت الألف للوقوف عليها فأشبهت ألف التأنيث فأميلت كما تمال ألف التأنيث ، وقد قيل إنها ألف تأنيث على الحقيقة دخلت لتأنيث الأداة أو لتأنيث الكلمة أو لتأنيث اللفظة كما دخلت التاء في (ثُمت و رُبّت ولاتَ) لتأنيث الكلمة أو اللفظ[3] " .

في حين ذكرت له علل أخرى وهي أن " الذي سهل إمالتها يقصد (بلى) نيابتها عن الجمل ،

---

(1) السابق 1/174, 175 . وينظر :النشر 2/41، وإتحاف فضلاء البشر ص117، والإمالة في القراءات واللهجات العربية ص227 .

(2) الكشف 1/188.

(3) السابق 1/168.

فصار لها بذلك مزية على غيرها ... وما نيابتها عن الجمل إلا في أنها تعطي معنى مفهومًا مستقلا عن غيرها ، منطوقة وحدها . هذا هو المقياس الذي أرى ... عليه إمالة ما يمال من الحروف ... قالوا: ولما كفت (بلى) عن الجواب ضارعت بذلك الاسم والفعل فأميلت ، ولا قيمة لمضارعة (بلى) الاسم والفعل في التعليل لإمالتها ، وإنما العبرة بأنها تكفي في الجواب بنفسها مستقلة عن غيرها[1]".

" وأما الحرف الثاني (أنى) فهو ظرف ، ولذلك كان أدخل في الأسماء من كونه في الحروف ، ولما كتب في المصحف بالياء أميل لتدل الإمالة على أن حكمه حكم الأسماء الممالة وأنه في الخط بالياء[2]".

ومن خلال حالة خاصة في القراءات القرآنية وتحت عنوان : (إمالة ما قبل هاء التأنيث) في حالة الوقف ورد موضع واحد في سورة الزخرف في قوله تعالى : (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ)(32) .

والعلة في إمالة هذا الضرب الخاص أن " هاء التأنيث أشبهت الألف التي للتأنيث من خمس جهات ، **إحداها:** قرب المخرج من الألف ، **والثانية :** أنها زائدة كألف التأنيث ، **والثالثة :** أنها تدل على التأنيث كالألف ، **والرابعة :** أنها تسكن في الوقف كالألف ، **والخامسة:** أن ما قبلها لا يكون إلا مفتوحًا كالألف إلا في موضع واحد لزمت الهاء في الوصل و الوقف فكسر ما قبلها على التشبيه بهاء الإضمار وذلك كقولك هذِهِ[3] " .

وقبل أن نختم الحديث عن القراءات القرآنية الخاصة بهذا الباب نشير إلى قراءة شاذة وردت عن طريق هذا القسم الذي " فقد شرط الصحة والتواتر ، وروى من بعض الطُّرُق والروايات عن بعض الأئمة ، غير أنه لم تصح عنهم القراءة ، فهذا شاذ لا يجوز القراءة به عنهم[4] " .

ومن خلال موضع واحد في سورة الزخرف قرأ الكسائي وأبو الحارث بالإمالة في (بصحاف) في قوله تعالى : (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ)(71)[5] .

وقد تحققت الإمالة في هذا الموضع في صوت (الحاء) ، وهو صوت من أصوات وسط الحلق ،

---

(1) الإمالة في القراءات و اللهجات العربية ص311 .

(2) الكشف في القراءات السبع 168/1 .

(3) السابق 203/1 .

(4) المحكم فيما شذت إمالته من حروف المعجم في القرآن العظيم د.محمد ابن سيدى محمد الأمين ص42- الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة – الطبعة الأولى 1422هـ .

(5) ينظر :السبعة ص78،والتيسير ص7، والبحر المحيط 26/8 ،والمحكم فيما شذت إمالته ص81.

فعند النطق بصوت الحاء يصعد الهواء من الرئتين مارًّا بالقصبة الهوائية فالحنجرة فتنبسط فتحة المزمار ويتسع الممر الصوتي ، ويبتعد الوتران الصوتيان عن بعضهما فلا يهتزان فأقصى الحلق حتى إذا وصل إلى وسط الحلق ضاق الممر الصوتي وتسرب الهواء تسربًا ضعيفًا مكونًا صوت الحاء[1] .

وفي هذه القراءة إثبات أن الإمالة ليست خاصَّة بالألف والراء وهاء التأنيث فقط ، وإنما " كل حروف الهجاء يمكن أن تكون حروف إمالة[2] " .

وإذا أردنا في النهاية أن نتعرف على طبيعة الإمالة ووضعها في الحركات المعيارية سواء الأمامية منها أو الخلفية " فالإمالة من الناحية الصوتية تنحصر في المنطقة الأمامية ، فهي ليست إلا عبارة عن تغيير نقطة مخرج الحركة المنفتحة طفيفًا وانتقالها نحو درجة نصف الانفتاح ، أي أن إمالة (بَيْنَ بَيْنَ) تقترب نحو الحركة المعيارية (E) ، وأما الشديدة أو المحضة فهي قريبة من الحركة المعيارية (e) ، وأما الإضجاع فهي تقترب من الحركة المعيارية (i)[3] " .

وهذه الطبيعة الصوتية هي من قبيل السرعة في الآداء اختصارًا للجهد العضلي ، والذي لجأت إليه القبائل العربية البدوية ومال إليه بعض القراء بخلاف إخوانهم في الحضر فكانوا أشد تحقيقًا لهذه الأصوات نظرًا لتأنِّيهم في النطق .

" فالمعروف أن الإمالة اشتهرت عند قبائل شرق الجزيرة ووسطها مثل : أسد ، وعبد القيس ، وتميم ، وتغلب ، وطيىء ، وبكر بن وائل ، كما اشتهرت على ألسنة قراء الكوفة بالعراق في القرن الثاني الهجري ، أمثال حمزة ، والكسائي ، وخلف ، كما كان لها تأثير واضح – أيضًا– على ألسنة علماء الكوفة ، وأهلها ، واستمر ذلك حتى عصر أبى عمرو الداني ، في القرن الخامس الهجري ، فقد قيل للكسائي : إنك تميل ما قبل هاء التأنيث فقال : هذا طباع أهل العربية ، قال الحافظ أبو عمرو الداني : إن الكسائي " يعني بذلك أن الإمالة لغة أهل الكوفة ، وهي باقية فيهم إلى الآن ، وهم بقية أبناء العرب ، وهؤلاء وأولئك متأثرون بالقبائل العربية التي هاجرت إلى العراق من شرق الجزيرة

---

(1) علم الصوتيات وتجويد آيات الله البينات د.إبراهيم محمد أبو سكين ص120– الطبعة الأولى 1421هـ –2000م.وينظر : الأصوات اللغوية ص85، 86،وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص178، وعلم اللغة العام (القسم الثاني "الأصوات ")ص303، 304 – دار المعارف بمصر 1969م , والمختصر في أصوات اللغة العربية ص87.

(2) المحكم فيما شذت إمالته ص223.

(3) الإمالة والتفخيم 290/1.

ووسطها ، وهم أرباب الإمالة السابقون ، وهذه القبائل بدوية ، تميل إلى عدم وضوح الأصوات ، والخلط بينها ، ولا ريب أن الإمالة تخلط بين الصوتين ، فهي تجعل الفتحة قريبة من الكسرة ، و الألف قريبة من الياء ، وهكذا تقرب الأصوات ، أو تتجانس ، ويحدث التناسب بينهما ، وهذا يساعد على سرعة النطق ، وعدم بذل مجهود عضلي كبير ، وهو من خصائص البدو ، ويبدو أن الإمالة ، كانت شديدة ، لدى قبائل وسط الجزيرة ، لتوغلهم في البداوة وبعدهم عن الحضر ، على حين كانت خفيفة لدى قبائل شرقيها ، لمتاخمتهم لمدن العراق ، أما الفتح – كما يسمونه وهو عدم الإمالة – فإنه يؤدِّى إلى فصل الأصوات ، وإعطاء كل منها حقه في النطق ، وهذا يحتاج إلى جهد عضلي كبير ، وهو من صفات المتحضرين الذين يميلون إلى الأناة ، وعدم السرعة في النطق ، وحياتهم المستقرة تدعوهم إلى بذل مجهود أكبر ، لإبراز الأصوات في صورة واضحة ، متناسقة . ولذلك اشتهر الفتح عن قبائل غربي الجزيرة ، من سكان الحجاز كقريش ، وثقيف ، وسعد بن بكر ، والأنصار ، وكنانة ، وهوازن[1] " .

إذًا ومن خلال عاملي التناسب وبيان الأصل اليائي تمَّ عرض باب الإمالة في العربية والقراءات القرآنية ، فظهر العامل الأول من خلال الانسجام بين أصوات اللين ، " وهذا الانسجام أقرب إلى السهولة والاقتصاد في الجهد العضلي . وعليه فإن الكلمة التي تشتمل على صوائت منسجمة أحدث من نظيرتها التي خلت صوائتها من الانسجام[2] " .

ولكن " ومع فقدان الدليل التاريخي ، في مثل هذه الأحوال ، فإننا لا نمنع أن يكون شيء من التطور – لاختلاف بعض القبائل عن بعض في النشأة وعوامل الاجتماع – قد اعترى اللغة ، وموادها في نشأتها الأولى ، وقد صار ذلك اتجاهًا لهجيًّا فيما بعد ، وقد استقرت الأولى لدى البدو ، وانتشرت الثانية في الحضر ، ولجأت إليها اللغة النموذجية ، للوضوح ، والفصل بين الأصوات ، ومخارج الحروف ، والحركات ، التي هي من أخص خصائص الحضارة ورقي الاجتماع[3] " .

وأما عن مرحلة بيان الأصل اليائي فهي تمثل الأصل في النطق عند بعض القبائل ، وهذا يعنى " أن قبائل الحجاز التي عرف عنها الفتح ، قد قطعت مرحلة أخرى ، في تطور لهجتها ، على حين أن

---

(1) اللهجات العربية نشأة وتطوراً ص200، 201. وينظر: في اللهجات العربية ص90، 91 .

(2) علم اللغة العربية ص226. وينظر : في اللهجات العربية ص47، 48.

(3) اللهجات العربية نشأة وتطورًا ص 208 .

بعض القبائل في وسط الجزيرة ، وشرقها قد احتفظت بمرحلة الإمالة ، التي هي أقدم حين تكون الياء ، أصيلة في الكلمات ، ويرجع السر في احتفاظ البدو بهذه الظاهرة , إلى أنهم عرفوا بها , فتعصبوا لها[1] ".

ومن هنا فالإمالة ظاهرة من الظواهر السائدة عند العرب والتي كانت تفرق بين منطقة وأخرى ، لذا يجوز النطق بالإمالة كما يجوز النطق بالفتح ، فكلاهما جائز سائغ لدى أهل العربية ، فـ " تجويز المتأخرين من النحاة ، والقراء ، للأمرين ،-الإمالة والفتح- في الألفاظ التي يمكن تحقيقها فيها ، فذلك ليس راجعًا إلى جوازه بين العرب ، الأولين ، بحيث كان الواحد ، أو الطائفة منهم تنطق بالكلمة طورًا ممالة , وطورًا أخرى مفتوحة ؛ لأنه ممتنع عليهم ... وإنما الجواز الذي أرادوه بالنسبة للسان العربي بعد أن أصبح لغة عامة ، لا قبيلة ، فمن الجائز لنا الآن أن ننطق بأي الصورتين ، فكل منهما لهجة عربية صحيحة منذ بدايتها ، ولذا لا يجوز أن نرمي المتأخرين بالخطأ في قولهم بجواز الإمالة[2] " .

إذًا فالإمالة باب من أبواب التيسير في النطق والخفة في اللفظ ، فهي وجه من وجوه القراءات القرآنية الصحيحة أنزل الله قرآنه بها تخفيفًا على العرب ومراعاة لحالتهم اللهجية .

لذلك قيل : " وأما فائدة الإمالة فهي سهولة اللفظ ؛ وذلك لأن اللسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة ، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع ، فلهذا أمال من أمال[3] " .

---

(1) السابق ص203 .

(2) السابق ص208، 209. وينظر :الإمالة في القراءات واللهجات العربية ص101.

(3) النشر 35/2 .

المبحث الثالث :المماثلة

ببراعة ودقة فائقة حدَّد علماء العربية – قديمًا وحديثًا – مخارج الأصوات اللغوية ، وذلك من خلال تقسيم كل مجموعة منها إلى مدارج وأحياز ، كل منها له صورة نطقية تختلف عن الأخرى .

وفي الوقت نفسه تمَّ وضع السمات الخاصة بها ، سواء أكان ذلك عن طريق دائرة الضعف أم القوة ، أو ما يسمى في عرف أهل اللغة بالصفات الضدية , أم كان خارج حدود هذه الدائرة عن طريق الصفات الفردية التي تتمتع بها بعض أصوات هذه اللغة.

وفي ضوء علم التشكيل الصوتي حرصت العربية على الجمع بين الأصوات التي تتلاءم وتنسجم مع غيرها تيسيرًا لعملية النطق ودفعًا للتجافي الذي تأباه وتنفر منه هذه اللغة .

ومن هنا ورغبة في حسن التجاور والتناغم بين أصوات العربية في المتصل من كلامها ظهرت بعض الأصوات بصورة نطقية غير التي كانت عليها في حالة الإفراد ، وذلك من خلال تحويلها إلى أصوات أخرى أو التقريب بينها بطرق شتي ، فتتحول بذلك الوحدة الكلامية إلى صورة بديعة متناسقة ، سواء أكان ذلك بين أجزاء الكلمة الواحدة ، أم في المتصل من كلامها .

"فحين ينطق المرء بلغته نطقًا طبيعيًّا لا تكلف فيه ، نلحظ أن أصوات الكلمة الواحدة قد يؤثر بعضها في البعض الآخر، كما نلحظ أن اتصال الكلمات في النطق المتواصل قد يخضع أحيانًا لهذا التأثر[1]" .

ومن هنا وتحت عنوان (الاقتصاد في الجهد العضلي والانسجام بين أصوات اللغة)ظهرت المماثلة كصورة من إحدى صور العربية التي يتم من خلالها تحقيق هذا العنوان .

وهذه هي بعض الأسس النظرية الخاصة بهذه الظاهرة توطئة لمعرفة بعض عالمها التطبيقي في سورة الزخرف ، وذلك من خلال العناوين الآتية:

أولا – ضابط المماثلة :

حتى تتحقق ظاهرة المماثلة في العربية كان لابد من إجراء التعديل والتحويل بين أصوات اللغة ، لذلك قيل بأنها عبارة عن : التعديلات التكيفية للصوت حين مجاورته للأصوات الأخرى ، أو هي تحويل الفونيمات المتخالفة إلى متماثلة إما تماثلا كليًّا أوجزئيًّا[2].

([1]) الأصوات اللغوية ص 167.

([2]) ينظر:دراسة الصوت اللغوي ص 378.

ثانيًا- درجات المماثلة :

قد تتمكن بعض أصوات اللغة في العربية بما تحمله من سمات القوة فتصبح لديها القدرة على التأثير في غيرها ، في حين لا تمتلك هذه القوة بعض الأصوات الأخرى فتقبل هذا التأثير ، والتأثير بين أصوت اللغة له درجتان ، فقد يأتي عن طريق فناء أحد الصوتين في الآخر فناء كاملا حتى لا يبقى له أثر ، فيذوب الصوت معه تمامًا ولا نلحظ له أثرًا في عملية النطق ، وربما يحتفظ الصوت ببعض أجزائه وتفنى أجزاؤه الأخرى .

ومن هنا ظهر ما يسمى بالمماثلة الكلية أو الكاملة ، أو ما يسمى التأثر الكلى تحقيقًا للحالة الأولى ، والمماثلة الجزئية أو الناقصة ، أو ما يسمى التأثر الجزئي تحقيقًا للحالة الأخرى ، "فالأصوات المتجاورة تختلف في نسبة تأثرها بعضها ببعض ، فقد لا يعدو التأثر أن يكون مجرد انقلاب الصوت من الجهر إلى الهمس أو العكس . وأقصى ما يصل إليه الصوت في تأثره بما يجاوره أن يفنى في الصوت المجاور له ، فلا يترك له أثرًا .وفناء الصوت في صوت آخر هو ما اصطلح القدماء على تسميته بالإدغام[1]".

وعلى ذلك فهناك درجتان من درجات المماثلة وهما :

أ- المماثلة الكاملة أو التأثر الكلى:وهو أن يفقد الصوت وجوده كلية ويصبح صوتًا آخر.

ب- المماثلة الناقصة أو التأثر الجزئي : وهو أن يفقد الصوت صفة من صفاته كالجهر والهمس ويتحقق الصوت حينئذ ببعض صفاته الأخرى[2] .

ثالثًا- اتجاهات المماثلة :

إذا امتلك الصوت اللغوي أسباب القوة استطاع أن يؤثر في غيره سابقًا كان موقعه أو لاحقًا ، ومن هنا اختلفت درجات المماثلة وتنوعت إلى اتجاهين ، فـ "المحدثون من علماء الأصوات اللغوية قرروا أنه قد يتجاور صوتان لغويان ويتأثر الأول منهما بالثاني ، واصطلحوا على تسمية هذا النوع من التأثر بالرجعي ، وأحيانًا يتأثر الصوت الثاني بالأول وسموا هذا التأثر بالتأثر التقدمي ، فتأثر

---

(1)الأصوات اللغوية ص 171.

(2) أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي(أبو عمرو بن العلاء)د.عبد الصابور شاهين ص 32 – مكتبةالخانجى بالقاهرة-الطبعة الأولى 1408هـ -1987م . وينظر : التطور اللغوي (مظاهره وعلله وقوانينه) . د. رمضان عبد التواب ص 31 – مطبعة الخانجي – الطبعة الثانية 1415هـ - 1995م .

الأصوات المتجاورة بعضها ببعض نوعان :رجعى وفيه يتأثر الصوت الأول بالثاني ، وهذا النوع كثير الشيوع في اللغة الفرنسية والعربية أيضًا . تقدمي : وفيه يتأثر الصوت الثاني بالأول ، وهو الشائع في اللغة الإنجليزية ، كما أنه قد يوجد أيضًا في اللغة العربية[1] ".

إذًا فالمماثلة تقدمية حيث يكون التأثير من السابق على اللاحق ، أو هي رجعية حين يكون التأثير من اللاحق على السابق , وذلك بحسب كونها من الأمام إلى الخلف ، أو من الخلف إلى الأمام[2].

رابعًا - المماثلة في سورة الزخرف:

عرضت سورة الزخرف لمجموعة من صور التماثل بين الصوامت وكذلك بين الحركات ، وكل صورة منها تعرض لدرجة واتجاه ما ، والدرس الصوتي الآتي يعرض لبعض صور هذا التأثر ، مع التعليق على كل صورة على حدة .

أ-التماثل بين الصوامت:

إذا ما عرضنا للتماثل بين الصوامت كان لا بد من أن يأتي صوت النون الساكنة أو التنوين في المرتبة الأولى ؛ وذلك لأنه "يعرض للنون من الظواهر اللغوية ما لا يشركها فيه غيرها لسرعة تأثره بما يجاورها من أصوات ، ولأنها بعد اللام أكثر الأصوات الساكنة شيوعًا في اللغة العربية ، و النون أشد ما تكون تأثيرًا بما يجاورها من أصوات حين تكون مشكلة بالسكون ،حينئذ يتحقق اتصالها بما بعدها اتصالا مباشرًا[3] ".

إضافة إلى توسط النون بين مجموعة الأصوات الأسنانية اللثوية ، فهي تدخل ضمن دائرة المجموعة الكبرى المتقاربة المخارج ، والتي أطلق عليها المحدثون هذا المصطلح ، ثم تأتى لام التعريف في المرتبة الثانية اعتمادًا على توسط مخرجها هي الأخرى ، فهي في مرتبة واحدة مع صوت النون ، إضافة إلى انتمائها إلى تلك المجموعة الأسنانية اللثوية المتقاربة المخارج مثل صوت النون , كذلك صوت اللام أكثر الأصوات ورودًا في اللغة العربية .

لذلك كان التأثر في صوت النون واللام عند مجاورة بعض الأصوات أكثر من غيرهما من

---

(1) الأصوات اللغوية ص 169. وينظر : أصوات اللغة العربية ص 276 , 277.

(2) ينظر : أثر القراءات في الأصوات و النحو العربي ص 231.

(3) الأصوات اللغوية ص 46. والتنوين يعامل معاملة النون الساكنة .

أصوات العربية الأخرى .

والبحث الصوتي الحديث يعرض لهاتين الصورتين في سورة الزخرف ، إضافة إلى الصورة الثالثة التي يأتي التماثل فيها عن طريق بعض القراءات القرآنية , وذلك في حالة الاتصال بين الصوتين محور التأثر .

ويتم هذا العرض من خلال عنوانين (المماثلة الكلية الرجعية) ، و(المماثلة الجزئية الرجعية) .

1-المماثلة الكلية الرجعية :

يعرض الباحث في هذا الجانب لثلاث صور من صور المماثلة وهى :

الصورة الأولى :النون الساكنة وانتقال المخرج

تتغير الأحكام وتختلف نتيجة لطبيعة الأصوات التي تليها النون الساكنة ومدى قابليتها للتأثير أو رفضها له ، فمن هذه الأصوات ما تفنى معه النون الساكنة فناء كاملا فلا يعد لها أثرًا في عملية النطق ، وذلك عند التقائها مع صوت الميم ، فتتم بذلك صورة المماثلة الكلية الرجعية المتصلة تحت عنوان (النون الساكنة وانتقال المخرج).

ولكن قبل أن نعرض لتلك الكيفية التي تحول من خلالها صوت النون الساكنة إلى صوت الميم ، نورد أولا بعض أجزاء من تلك الآيات التي تم التفاعل فيها بين صوتي النون الساكنة مع صوت الميم في سورة الزخرف ، مع وضع الترقيم الخاص بتلك الآيات :

1 – (قوما مُّسرفين)(5) .
2 – (بلدة مَّيتا) (11) .
3 – (لكفور مُّبين)(15) .
4 – (كتابا مِّن) (21) .
5 – (قرية مِّن)(23) .
6 – (براء مِّما)(26) .
7 – (رجل مِّن)(21) .
8 – (خير مِّما)(32) .
9 – (سقفا مِّن)(33) .
10– (ضلال مُّبين)(53) .
11– (صراط مُّستقيم)(42) ،(61)،(64).
12 – (خير مِّن)(52) .
13 – (أسورة مِّن)(53) .
14 – (عدو مُّبين)(62) .
15 – (بصحاف مِّن)(71) .

فالقارئ الجيد لهذه الأجزاء من الآيات يلحظ أثر الفناء الكامل لصوت النون واختفاء صورته

النطقية تمامًا خلف صوت الميم ، وذلك في صورة التشديد للرمز الكتابي .

والسر في ذلك أن صوت النون عند "النطق به يندفع الهواء من الرئتين محركًا الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه في الحلق أولا ، حتى إذا وصل إلى الحلق هبط أقصى الحنك الأعلى فيسد بهبوطه فتحة الفم ويتسرب الهواء من التجويف الأنفي محدثًا في مروره نوعًا من الحفيف لا يكاد يسمع . فهي في هذا كالميم .غير أنه يفرق بينهما أن طرف اللسان مع النون يلتقي بأصول الثنايا العليا ، وأن الشفتين مع الميم هما العضوان اللذان يلتقيان[1]".

ونظرًا لهذا الاشتراك في صفة الغنة التي تجمع بين صوتي النون والميم تمَّ تحويل مخرج الصوت الأول من طرف اللسان وأصول الثنايا إلى مخرج الصوت الثاني من الشفتين على طريق المماثلة الكلية.

ولكن بعض العلماء المحدثين قد أدخل في حيز الإمكان هذه الصورة تحت دائرة التأثير الجزئي ، وذلك عندما قال عن صوت الميم : "بأن تأثر النون الساكنة بها يمكن أن يسمى إدغامًا ؛ لأن النون تحوَّلت إلى مثل الصوت الذي بعدها ، وهو الميم ، وذلك في مثل (مِنْ ماء) حيث تصير في النطق (مِمْ مَاء). ويمكن أن يسمى إخفاء ؛ لأن الإخفاء هو أن يزول معتمد النون في الفم ويبقى صوت الغنة ، وهو ما يحصل في هذه الحالة ، فإن معتمد النون قد زال من طرف اللسان وانتقل إلى مخرج الصوت الآتي بعد النون ، وهو الميم التي يعتمد لها في الشفتين ، لكن حدث هنا أن الميم صوت يشارك النون في الغنة ، فحين انتقل معتمد النون إلى مخرج الميم مع بقاء الغنة بدت النون مثل الميم ؛ لأن معتمدهما صار واحدًا , مع جريان الغنة معهما من الأنف ، وتوفرت حينئذ شروط الإدغام[2] ".

ويؤكد هذا الإمكان بالقياس على صورة الالتقاء بين صوتي النون الساكنة والباء فيقول :"إننا حين نقول إن النون قلبت ميمًا في مثل (من بعد) يجب أن نقول من الناحية النطقية إن النون قلبت ميمًا بالطريقة نفسها في مثل (من ماء) ، ولكن الميم الناتجة من انتقال مخرج النون إلى الشفتين صادفت في الحالة الأولى صوتًا ليس فيه غنة فتوقف تأثر النون عند حد صيرورتها ميمًا ، وصادف في الحالة الثانية صوتًا أنفيًّا ينتج بنفس الطريقة فتبع قلب النون ميمًا إدغامها في الميم[3] ".

([1])السابق 66.

([2]) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد د.غانم قدوري الحمد ص 456 – مطبعة الخلود – بغداد – الطبعة الأولى 1406هـ - 1986م .

([3]) السابق ص 457 .

ولكن الصورة الأولى تختلف عن الصورة المقيس عليها ، فما حدث لصوت النون مع صوت الميم هو الفناء الكامل ، بخلاف صوت النون مع الباء فالفناء فيها ناقصًا ؛ لأن الغنة في الصورة الأولى هي غنة الميم وليس للنون فيها نصيب ، حيث ذكر الدكتور/ إبراهيم أنيس " أما إذا ولى النون ميم فالنون هنا تفنى فناءً تامًّا في الميم ، فهو إدغام كامل لا ريب في هذا ، والغنة في هذه الحالة هي غنة الميم المشدَّدة[1] ".

الصورة الثانية :النون الساكنة وتغيير مجرى الهواء :

تحقَّقت هذه الصورة في سورة الزخرف من خلال عدة مواضع , تم من خلالها الالتقاء بين صوتي النون الساكنة و اللام ومنها هذه الأجزاء من الآيات:

1 - (عربيا لَّعلكم)(3) . 2 - (سبلا لَّعلكم)(10) .

3 - (درجات لِّيتخذ)(32) . 4 - (مَثَلا لِّبَنِي)(5) .

5- (لعلم لِّلساعة)(61) . 6 - (فويل لِّلذين)(65) .

7 - (قوم لَّا يؤمنون)(88).

فمن خلال تلك الأجزاء من الآيات نلحظ أن صوت النون الساكنة عندما يلتقي مع صوت اللام يفنى الأول في الثاني تمامًا فيتغير مجرى الهواء من الأنف في صورة النون إلى أحد جانبي الفم مع صوت اللام ، حيث "يتكون هذا الصوت بأن يمر الهواء بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه في الحلق وعلى جانبي الفم في مجرى ضيق يحدث فيه الهواء نوعًا ضعيفًا من الحفيف .وفي أثناء مرور الهواء من أحد جانبي الفم أو من كليهما ، يتصل طرف اللسان بأصول الثنايا العليا . وبذلك يحال بين الهواء ومروره من وسط الفم فيتسرب من جانبيه[2] ".

وبذلك تظهر صورة التشديد على صوت اللام كدلالة على حدوث هذا التفاعل الكامل الرجعى وتغييرًا لحالة النطق .

والذي سوَّغ هذا التأثير هو قوة التشابه الذي يجمع بين هذين الصوتين , إضافة إلى صوت الراء ، مما جعل المحدثون يضعون هذه الأصوات الثلاثة في حيز مجموعة واحدة ، لذلك قيل : "أما وجه

---

(1)الأصوات اللغوية ص 72 .

(2) السابق صـ 64 .

الشبه بين أفراد هذه المجموعة الفرعية كما يراها المحدثون فهو أنها مع قرب مخرجها تشترك في نسبة وضوحها الصوتي ، وأنها من أوضح الأصوات الساكنة في السمع , ولهذا أشبهت من هذه الناحية أصوات اللين ، فهي جميعًا ليست شديدة أي لا يسمع معها انفجار ، وليست رخوة فلا يكاد يسمع لها ذلك الحفيف الذي تتميز به الأصوات الرخوة ، ولذلك عدها القدماء من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة . أما باقي الأصوات المتوسطة كالميم والعين فهما بعيدان عن أصواتنا الثلاثة من ناحية المخرج وإن اتحدا معها صفة[1] ".

الصورة الثالثة :لام التعريف وانتقال المخرج :

تأتى لام التعريف في المرتبة الثانية بعد النون الساكنة في التأثر بمجاورة بعض أصوات اللغة ؛ وذلك اعتمادًا على توسط مخرجها هي الأخرى بين أصوات الفم ، ومن ثم حدوث التقارب بينها وبين مجموعة من الأصوات ، إضافة إلى كثرة ورودها في اللغة العربية ، حيث يقول الدكتور / إبراهيم أنيس : " وهذا الصوت لكثرة شيوعه في اللغة العربية ، طرأ عليه ما لم يطرأ على غيره من الأصوات الساكنة ، إذ نلحظ سرعة تأثره بما يجاوره من الأصوات ، وميله إلى الفناء في معظم أصوات اللغة[2] ".

والأصوات التي تماثلت معها لام التعريف ،أو ما تسمى باللام الشمسية هي على الراجح من أقوال العلماء ثلاثة عشر صوتًا :التاء – الثاء – الدال – الذال – الراء – الزاي – السين – الشين – الصاد – الضاد – الطاء– الظاء – النون .

ولم ترد لام التعريف مع هذه الأصوات في سورة الزخرف والتي تتماثل معها في المخرج إلا من خلال ستة أصوات فقط وهي :

أ- الذال كما في (الذِّكر) (5) .

ب- الراء كما في (الرَّحمن) (19-20-33-36-45) .

ج- السين في(السَّماوات)(9-82-85)،و(السَّماء)(11)، و(السَّبيل)(37) ، و(السَّاحر) (49) ، و(السَّاعة) (66-85) .

---

(1) السابق صـ 63 , 64 .

(2) السابق صـ 201 .

د- الشين في (الشَّفاعة) (86) .

ه- الظاء في (الظَّالمين)(76) و-النون في (النَّاس) (33) .

وفي هذه المواضع تمَّ التماثل التام بين صوت اللام وهذه الأصوات ، فهي مع صوت النون من حيز الأصوات الأسنانية اللثوية ، ثم انتقلت إلى مجموعة الأصوات الأسنانية أو مما بين الأسنان مع صوت (الذال) ، و(الظاء) ، وكذلك إلى الأصوات اللثوية مع صوت (الراء) و(السين) فهي تقع بينهما ، ثم انتقلت إلى مجموعة الأصوات اللثوية الحنكية مع صوت الشين[1].

وليس التأثير بين صوت اللام وهذه الأصوات غريبًا على العربية ، وذلك كما ذكر الدكتور/ إبراهيم أنيس :" الذي يبرر إدغام اللام في كل هذه الأصوات ، أن اللام أكثر الأصوات الساكنة شيوعًا في اللغة العربية ؛ لأن نسبة شيوعها حوالي 127مرة في كل ألف من الأصوات الساكنة ، ولا شك أن الأصوات التي يشيع تداولها في الاستعمال تكون أكثر تعرضًا للتطور اللغوي من غيرها .هذا إلى أن جميع الأصوات التي تدغم فيها اللام تندرج تحت تلك المجموعة الكبرى من الأصوات المتقاربة المخارج التي سبق شرحها ماعدا الشين ، ولهذا يعد إدغام اللام في الشين أمرًا غريبًا ، قد يبرره أن الشين أقرب أصوات الحنك إلى المجموعة الكبرى التي سبقت الإشارة إليها ، أو لصفة التفشي التي تقترب بها إلى مخرج اللام كما يقول القدماء من علماء الأصوات[2] " .

ومن خلال هذه المواضع تمَّ انتقال مخرج صوت اللام إلى هذه الأصوات نظراً للتقارب المخرجي بينهما ، " فكأن تتابع اللام وهذه الأصوات من تتابع الأمثال وهو مكروه ، وقد موثلت اللام لما بعدها لكون اللام هي الأضعف في مثل هذه الحال ؛ لأن لام التعريف أبدًا ساكنة ، وسكونها يعني أنها في نهاية مقطع مغلق ، بينما الأصوات التالية لها تمثل بداية مقطع قصير ، ولهذا كانت هي الأقوى فأثَّرت في اللام فجعلتها مثلها . والتاء كذلك بحسب موقعها ، فليست كما قال مكي بأنها أضعف من اللام ، بل هي الأقوى هنا لأنها تمثل بداية مقطع قصير[3] ... " .

الصورة الرابعة :قراءات قرآنية :

وردت بعض القراءات القرآنية في سورة الزخرف ظهر من خلال صورتها النطقية صورة

---

(1) ينظر : السابق ص 4 , 63 , 64 , 65 , 73 , وعلم اللغة العام (القسم الثاني : " الأصوات ") ص89 .

(2) الأصوات اللغوية ص 202 , 203.

(3) أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية صـ 47 , 214 .

التماثل الكلى ، إما على سبيل الاتفاق في المخرج أو التقارب فيه ، وكذا الاتفاق في بعض الصفات الصوتية كمسوِّغ لهذا التماثل ، ومنها :

1-التماثل بين الذال والظاء :

قرأ جميع القراء بإدغام الذال في الظاء في (إذ ظلمتم) في قوله تعالى : (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) (39)[1].

وقد بني الإدغام أو التماثل الكلى في هذه الصورة بناء على الاتفاق في المخرج بين صوتي الذال والظاء ، فكلاهما ينتمي إلى حيز واحد ، فعند النطق بالذال "يندفع معه الهواء مارًّا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ الهواء مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت ، وهو بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، وهناك يضيق هذا المجرى فتسمع صوتًا من الحفيف ...أما الظاء فهو كالذال تمامًا ، ولكن هذا الصوت يختلف عن الذال في الوضع الذي يأخذه اللسان مع كل منهما ، فعند النطق بالظاء ينطبق اللسان على الحنك الأعلى آخذًا شكلا مقعرًا ...ففي حالة النطق بالظاء يرتفع طرف اللسان وأقصاه نحو الحنك ويتقعر وسطه كما يرجع اللسان إلى الوراء قليلا. ولذلك اعتبر القدماء الظاء أحد أصوات الإطباق[2] ".

فالذال إذًا صوت مما بين الأسنان احتكاكي مجهور ، والظاء صوت مما بين الأسنان احتكاكي مجهور مفخم (مطبق)[3].

فالذي سوَّغ التماثل الكلى بين الذال والظاء هو الاتفاق في المخرج ، فكلاهما من مخرج واحد ، إضافة إلى الاتفاق في بعض الصفات الصوتية ، فكلاهما صوت احتكاكي مجهور ، فلا فرق بينهما إلا الإطباق في الظاء وعدمه في الذال .

2-التماثل بين الدال والجيم :

أدغم الدال في الجيم أبو عمرو وهشام وحمزة و الكسائي وخلف في (قد جئتكم) ، و (لقد

---

(1) إعراب القراءات الشواذ للعكبري . دراسة وتحقيق . محمد السيد أحمد عزوز 448/2 - عالم الكتب - بيروت – لبنان – الطبعة الأولى 1419هـ - 1999م .

(2) الأصوات اللغوية ص 47 , 48 . وينظر : علم الأصوات ص 298 , 299 .

(3)علم الأصوات ص 299 .

جئناكم) في قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ)(63) ،وقوله تعالى : (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) (78)[1].

وقد ظهر التماثل بين صفتي الدال والجيم ، ولذلك حسن عندهما الإدغام ، حيث ذكر الدكتور/ إبراهيم أنيس أن " الدال صوت شديد مجهور ، يتكون بأن يندفع الهواء مارًّا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يأخذ مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت فينحبس هناك فترة قصيرة جدًّا لالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكمًا . فإذا انفصل اللسان عن أصول الثنايا يعد حائلا يعترض مجرى الهواء , ولا يسمح بتسربه حتى ينفصل العضوان انفصالا مفاجئًا يتبعه بعد ذلك الانفجار[2] " .

أما صوت الجيم فهو"صوت مجهور ، يتكون بأن يندفع الهواء إلى الحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج , وهو عند التقاء وسط اللسان بوسط الحنك الأعلى التقاء يكاد ينحبس معه مجرى الهواء . فإذا انفصل العضوان انفصالا بطيئًا سمع صوت يكاد يكون انفجاريًّا هو الجيم العربية الفصيحة . فانفصال العضوين هنا أبطأ قليلا منه في حالة الأصوات الشديدة الأخرى ، ولهذا يمكن أن تسمى الجيم العربية الفصيحة صوتًا قليل الشدة[3] ".

وعملية التماثل بين صوتي الدال والجيم تتم عن طريق أن "ينتقل مخرج الدال إلى وسط الحنك ،مع السماح قليلا بمرور الهواء ، وبذلك تقل شدتها فتشبه الجيم ، وهكذا يتم الإدغام[4] ".

3 - التماثل بين الثاء والتاء:

أدغم الثاء في التاء أبو عمرو وهشام وابن ذكوان من طريق الصوري وحمزة و الكسائى وخلف بخلاف عنه و الداجونى في قوله تعالى : (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (72)[5].

فعن طريق الانتقال المخرجى ظهر حدوث التماثل بين صوتي الثاء والتاء ، فعند النطق بصوت الثاء يوضع طرف اللسان حال النطق بهذا الصوت بين أطراف الثنايا العليا والسفلى بصورة تسمح

---

(1) ينظر : إتحاف فضلاء البشر ص 28 , 286 , والبحر المحيط 147/3 .
(2) الأصوات اللغوية ص 48 . وينظر : علم الأصوات ص 250 .
(3)الأصوات اللغوية ص 77 . وينظر : علم الأصوات ص 310 .
(4)الأصوات اللغوية ص 182 .
(5) النشر في القراءات العشر 17/2 . وينظر : الكشف في القراءات السبع 159/1 .

بمرور الهواء من خلال منفذ ضيق ، فيحدث الاحتكاك , مع عدم السماح للهواء بالمرور من الأنف ، مع عدم تذبذب الأوتار الصوتية :فالثاء –إذن– صوت مما بين الأسنان احتكاكى مهموس[1] .

وأما صوت التاء يقف الهواء وقوفًا تامًّا حال النطق به عند نقطة التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا و مقدم اللثة ، ويضغط الهواء مدة من الزمن ثم ينفصل اللسان فجأة تاركًا نقطة الالتقاء فيحدث صوت انفجاري ، ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق بالتاء ، فالتاء – إذن– صوت أسناني لثوى وقفة انفجارية مهموس[2].

وهنا تم التماثل عن طريق أن " انتقل مخرج التاء إلى الأصوات المسماة باللثوية , مع السماح للهواء بالمرور معها لتصبح رخوة بعد أن كانت شديدة ، وبذلك يتحد الصوتان في الرخاوة والمخرج والهمس فيتم الإدغام[3]".

ثانيًا : المماثلة الجزئية الرجعية :

إذا كان الصوت اللغوي يفني فناء تامًّا في حالة حدوث المماثلة الكلية ، فهو يحتفظ ببعض أجزائه في المماثلة الجزئية ؛ وذلك لأن قوة التأثير تختلف درجاتها من صوت إلى آخر .

والصورة النطقية لبعض الحروف في المتصل من كلمات سورة الزخرف تؤكد حدوث هذا التماثل ، ولكن من خلال صورة واحدة وهي صورة (الانتقال المخرجي) .

وهذه الصورة تأتي من خلال التقاء صوت النون الساكنة مع بعض أصوات اللغة ، حيث يتحقق بينهما صورة المماثلة الجزئية ، والبحث يعرض لأربع حالات منها :

الحالة الأولى : بين صوتي النون و الباء

يتعرض صوت النون عندما يكون مُشكلا بالسكون لبعض حالات التماثل الجزئي عند مجاورة بعض أصوات اللغة الأخرى فلا يتم معها الفناء الكامل كما حدث مع أصوات المجموعة الأخرى ؛ وذلك لأن طبيعة الأصوات تختلف من حيث مدى قابليتها لهذا التأثير إن كان كليًّا أو جزئيًّا.

وقد ظهر هذا التماثل في صورة التقاء النون الساكنة مع صوت الباء في سورة الزخرف و ذلك من خلال كلمتين في أربعة مواضع , فأنتج هذا الالتقاء بينهما صوت الميم , والذي تظهر صورته

(1) علم الأصوات ص 298 . وينظر : الأصوات اللغوية ص 47 , 48 .
(2)علم الأصوات ص 249 . وينظر : الأصوات اللغوية ص 61 .
(3) الأصوات اللغوية ص 180 .

المعروفة في لغة الكتابة فوق النون الساكنة .

وهذه المواضع هي :

1 – (ماء بقدر) (11) . 2 – (كلمة باقية) (28) .

3 – (إِلَّا جَدَلا بَلْ)(58) . 4 – (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ) (67) .

وكل صوت من هذين الصوتين ينتمي إلى مجموعة مخرجية تختلف عن الأخرى , فصوت النون ينتمي إلى مجموعة الأصوات الأسنانية ، في حين ينتمي صوت الباء إلى مجموعة الأصوات الشفوية ، فلما حدث بينهما هذا التباعد المخرجي تمَّ تحويل مخرج صوت النون إلى صوت يشترك معه في صفة الغنة ، وفي نفس الوقت يتفق مع صوت الباء في المخرج ، فظهر الوسيط الذي يجمع بينهما وهو صوت الميم ؛ وذلك لأنه يجمع بين صفة الغنة ، إضافة إلى أنه من الأصوات الشفوية ، ولذلك قيل : "إذا جاورت النون الباء مجاورة مباشرة لاحظنا أن النون تتأثر بالباء وتقلب إلى صوت أنفى شبيه بالباء في المخرج , وهذا الصوت هو الميم ، أي أن تفقد مخرجها ولكن لا تفقد صفتها الأنفية[1] ... " .

وهنا لم يتحقق بين صوتي النون والباء صورة التماثل الكلي حتى يفنى أحدهما في الآخر مثلما حدث مع صوتي الميم واللام ، ولكن انتقل مخرج النون إلى مخرج الباء بتحويله إلى صوت الميم ولكن مع الحفاظ على صفة الغنة فيه. ولذلك فحفاظ صوت النون على صفة الغنة في هذا السياق هو الذي أحدث صورة التماثل الجزئي .

الحالة الثانية :بين النون وأصوات الإخفاء :

هذا حكم آخر تعرضت له النون الساكنة وهو (الإخفاء) , وذلك عند التقائها بخمسة عشر صوتًا من أصوات اللغة ظهر أثرها في تلك المجموعات المخرجية الآتية سواء في كلمتين أم كلمة واحدة وهي : المجوعة الأولى (الفاء) , المجموعة الثانية (الذال – التاء – الظاء) , المجموعة الثالثة (الدال – الضاد – التاء – الطاء) , المجموعة الرابعة (السين – الزاي – الصاد) , المجموعة الخامسة (الشين – الجيم) , المجموعة السادسة (الكاف – القاف) , والوارد في سورة الزخرف من تلك الحالات هو الالتقاء الذي حدث بين صوت النون الساكنة مع خمسة أصوات في ستة عشر موضعًا وهى:

---

[1] السابق ص 73 .

1- الفاء في(نبي في)(6) ، و (شيطانًا في)(36) و (قومًا فاسقين)(54) ، و (ملائكة في)(60)، و (أمرًا فإنا)(79)، و (ولد فأنا)(81)، و (سلام في)(89) .

2- الدال في(بعض درجات)(32) , و (عندك)(49).

3- التاء في (كنتم) (5)، و(فانتقمنا)(25)، و (منتقمون) (41) و(انتقمنا)(55) .

4- السين في (بعضًا سخريًا) .

5- الكاف في (منكم)(60)، و(فاكهة كثيرة)(73).

ويلاحظ التقارب المخرجي بين تلك الأصوات وبين صوت النون ، حيث نجد أن صوت النون قد وقع في موقع وسط بين تلك الأصوات الخمسة ، فالنون تنتمي إلى مجموعة (الأصوات الأسنانية اللثوية) ، والدال والتاء معه ينتميان إلى نفس المجموعة ، في حين يأتي بعدها صوت الكاف وهو ينتمي إلى أصوات أقصى الحنك ، بينما ينتمي صوت السين إلى (الأصوات اللثوية) ، ثم يتقدمها صوت الفاء وهو ينتمي إلى الأصوات الأسنانية الشفوية[1].

ومن هنا فلم تأت هذه الأصوات مع صوت النون في مجموعة واحدة حتى يتم التماثل الكلى بينهما ، ولم تتباعد منها تباعدًا كليًّا فلا يحدث لأحدهما تأثير على الآخر ، وإنما تقاربا في المخرج فحدث بينهما حكمًا وسطًا بين الإظهار والإدغام ، وهى ما يسمى عند علماء العربية بالإخفاء ، "وطريقة الإخفاء أن تجعل اللسان (في نطق النون الساكنة والتنوين)لا يصل إلى سقف الحنك بل يقترب منه فحسب ، ووصف طريقة الإخفاء بانتقال اللسان إلى مخرج الحرف التالي للنون أو التنوين وصف غلط لا أصل له ... وفى هذه الحالة فإن جلَّ هواء النفس يخرج من الأنف وبعضه من الفم ، أما في حالة إظهار النون فإن اللسان يلتقي بسقف الحنك أعلى لثة الثنايا العليا ، ويخرج نَفَس النون كله من الأنف[2]".

إذًا فالإخفاء يحافظ على صفة الغنة لصوت النون عند التقائها بهذه الأصوات ، ومن هنا كان التماثل جزئيًّا ، ولكن ما يحدث هو أن ينتقل صوت النون إلى مخارج هذه الأصوات مع الحفاظ على صفة الغنة فيها ،ولكن ليس انتقالا كليًّا بل هو تقريب منها "و الوسيلة التي لجأ إليها القراء منذ

(1) ينظر : السابق ص 47 , 48, 74 , 83 , وعلم اللغة العام ص 89 .

(2) المختصر في أصوات اللغة العربية وهامشه ص 195.

القدم لإعطاء النون بعض حقها الصوتي مع غير أصوات الحلق هي الغنة ، فالغنة التي حالت بين النون وفنائها في غيرها من الأصوات هي وسيلة لجأ إليها القراء احترازًا من أن يقرأ القرآن كما يتكلم الناس في أحاديثهم الدارجة ؛ لأن النون في تلك الأحاديث مالت فيما يظهر إلى الفناء في غيرها من الأصوات دون أن تخلف أية إشارة تنبئ عنها ، وليست الغنة إلا إطالة لصوت النون مع تردد موسيقى محبب فيها ، فالزمن الذي يستغرق النطق بالغنة هو في معظم الأحيان ضعف ما تحتاج إليه النون المظهرة ، وليس هنا إلا للحيلولة بين النون والفناء في غيرها , فالفرق بين النون المظهرة ونون الغنة فرق في الكمية من ناحية , وتطور النون وميل إلى مخرج الصوت المجاور من ناحية أخرى[1]" .

وهذا النوع من التماثل يدخل في دائرة التماثل الجزئي ؛ وذلك لأن صوت النون لم يفن كلية مع تلك الأصوات ، وإنما حافظ على بعض أجزائه وهي الغنة ، ولكن ما حدث هو أن اقترب مخرجه من مخارج هذه الأصوات .

"وليس ما سموه بالإخفاء إلا محاولة الإبقاء على النون ، وذلك بإطالتها مما أدى إلى ما نسميه بالغنة ، هذا إلى أننا نلحظ مع ما يسمونه بالإخفاء ميل النون إلى مخرج الصوت المجاور لها[2] ".

وهذا النوع من التأثير يندرج تحت دائرة التأثر الرجعى ، حيث أثر فيه الصوت الثاني على الأول , حيث لم يكن بين صوت النون وهذه الأصوات التقارب التام فيحدث التماثل الكامل أو المماثلة الكاملة بينهما ، ولم يكن بينهما التباعد المخرجي التام فلا يتأثر أحدهما بالآخر، وإنما هي حالة تقارب بين صوت النون ومخارج هذه الأصوات .

الحالة الثالثة :صوت النون بين الياء والواو :

ظهر الاتصال بين صوت النون وصوتي الياء والواو في عده مواضع من سورة الزخرف كان نصيب الياء فيها قليلا مقارنة بصوت الواو ، حيث لم ترد صورة الياء مع صورة النون في هذه الحالة إلا في موضعين فقط وهما :

1- (آلهة يعبدون)(45).

2- (عذاب يوم)(65).

---

(1) الأصوات اللغوية ص 69 , 70 .

(2) السابق ص 70 .

وأما الالتقاء بين صوتي النون والواو فقد ورد في عدة مواضع منها :

1- (بطشا و مضى)(8). 2- (مهدا وجعل)(10) .
3- (بنات وأصفاكم)(16). 4- (مسودا وهو)(17) .
5- (أمة وإنا)(22). 6- (سحر وإنا)(30) .
7- (أمة واحدة)(33) . 8- (أبوابًا وسررًا)(34).
9- (وزخرفا وإن)(35) . 10- (سلفا و مثلاً)(51) .
11- (بغتة وهم)(66) . 12- (ذهب وأكواب)(71) .
13- (وأكواب و فيها)(71) . 14- (إله وفى)(15-84).

فعندما يلتقي صوت النون الساكنة مع صوتي الياء والواو يحدث ما يسمى بالمماثلة الجزئية ، والتي من خلالها "تفنى النون تاركة ورائها نوعًا من الغنة ، وذلك عند مجاورتها للياء والواو . فإذا ولي النون المشكلة بالسكون ياء ، أو واو شددت الياء أو الواو ، ثم سمح عند النطق بهما أن يتخذ الهواء مجراه من طريقين معًا هما الفراغ الأنفي والفم ... أي أن يشترك الفراغ الأنفي مع مجرى الصوت من الفم ، ويمكن أن تسمى مثل هذا الصوت بالصوت "الأنفي"... والحالة الوحيدة التي يسمح فيها بمرور الهواء من الأنف والفم معًا عند جمهور القراء حين يلتقي النون بكل من الياء والواو ، فذلك الصوت الأنفي الذي نسمعه في قراءة أمثال : (مَنْ يقول - مِنْ وال) ليس نونًا بل هي ياء أنفمية أو واو أنفمية سمح عند النطق بها بأن يمر الهواء من كل من الأنف والفم ، فالنون في المثال الأول قلبت ياء وفى الثانية واوًا ، ولكن هذه الياء وتلك الواو قد شاب كلا منهما شائبة وهى النطق بهما من الأنف والفم معًا . فهو نوع من القلب تبعه إدغام ، ولكنه قلب ناقص إذ لم يتحول الصوت المقلوب إلى كل صفات الصوت المقلوب إليه ، مما جعل القدماء يسمون هذا النوع من الإدغام إدغامًا ناقصًا[1]".

ب-التماثل بين الحركات :

لا يقتصر مجال التأثير بين الأصوات في العربية على دائرة الصوامت فقط ، وإنما للحركات فيه نصيب ، حيث يتم من خلال مجال التأثير تحويل النطق ببعض الحركات التي تنتمي إلى منطقة ما إلى حركة أخرى تنتمي إلى منطقة أخرى ، سواء أكان هذا التأثير داخل حدود الكلمة الواحدة ،أو بين نهاية الكلمة و بداية كلمة أخرى ؛ وذلك لأن عدم التحويل قد يؤدى إلى مضاعفة الجهد العضلي

(1) السابق ص 70 , 71 .

الذي تنفر منه بعض اللهجات العربية .

ومن هنا وتحقيقًا لمبدأ الانسجام بين أصوات اللغة والاقتصاد في الجهد العضلي ظهرت بعض صور هذا التماثل في سورة الزخرف ، وذلك من خلال بعض القراءات القرآنية ، والتي يمكن العودة بها إلى ظاهرتين من ظواهر التماثل بين الحركات في عالم العربية وهما :

أولا- التوافق الحركي :

ظهر مصطلح التوافق الحركي في العصر الحديث مرادفًا لمصطلح الإتباع عند القدامى , وهو عبارة عن "مماثلة حركة لحركة أخرى مماثلة تامة[1] "، أو هو :"يعنى تأثير الحركة الأساسية في الكلمات أو المقطع على الحركة التالية أو السابقة[2] ".

فالتوافق الحركي ضرب من ضروب التناسب بين الحركات وهو من سنن العرب , حيث قيل :"ومن سنن العرب كذلك تقريب الأصوات اللينة بعضها من بعض لما في ذلك من المشاكلة و التجانس والتماس الخفة التي رغبوا فيها ومالوا إليها . وتقريب الصوت يكون بتغليب الحرف المتقدم على المتأخر ... وقد يكون بتغليب المتأخر على المتقدم أحيانًا أخرى ..."[3].

وقد ظهر أثر هذا التوافق الحركي في سورة الزخرف من خلال قراءتين : القراءة الأولى : قرأ حمزة و الكسائى والأعمش بكسر الهمزة في (أم) وصلا (في أم) في قوله تعالى: (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) (4)[4].

القراءة الثانية : قرأ شعبة عن عاصم (جُزُؤا) بضم الزاي في قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ) (15)[5].

وقد ظهرت صورة التماثل في القراءة الأولى بين حركتي الكسر ؛ وذلك حتى يظل وضع اللسان في اتجاه واحد بدلا من تحريكه من الكسر إلى الضم ، وذلك في حالة الوصل فيؤدى بذلك إلى الثقل الذي تنفر منه بعض اللهجات العربية .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن كسرة الهمزة في (إم) هي تابعة للكسر في صوت الفاء في (في) ,

---

(1) علم اللغة العربية ص 229.

(2) علم الأصوات النطقى دراسة وصفية تطبيقية د.هادي نهر ص 162 – عالم الكتب الحديث – أربد – الأردن 2011م .

(3) الإمالة في القراءات واللهجات العربية ص 324 .

(4) ينظر : الكشف 379/1 , والنشر 248/2 , وإتحاف فضلاء البشر ص 384 .

(5)ينظر : الكشف 247/1 , والتيسير ص 82 , والنشر 216/2 , وإتحاف فضلاء البشر ص 385 .

حيث قيل :بكسر الهمزة في الوصل ، وهو إتباع لحركة ما قبلها عند الشهاب [1].

في حين ذكر بعض العلماء أن " كسرة الهمزة لإتباع الميم ، أو الكاف ، فلا تكسر في عدم الوصل[2]" .

وأما القراءة الثانية فقد تم التماثل فيها بين صوتي الضم ، فآثرت بعض اللهجات هذه الصورة ، وذلك لاتجاه اللسان معها اتجاه واحدًا , وبعضها الآخر رأى أن تتابعهما بهذه الصورة فيه ثقل ، فلجأ إلى التخفيف ، وذلك عن طريق تسكين صوت الضم الثاني .

ثانيًا :هاء الغائب :

تحدث علماء القراءات قديمًا عن هاء الغائب والأصل فيها ، ثم كيف تحول النطق فيها عن هذا الأصل ، وذلك ليتم التماثل في النطق بين حركتها وحركة ما قبلها ، حيث يقول مكي بن أبى طالب في (باب علل هاء الكناية) : " اعلم أن الهاء في " به , وعليه " وشبهه هي الاسم لكن لما قلَّت حروف الاسم , فكان على حرف واحد , وذلك الحرف حرف خفي ضعيف , قوّوه بزيادة " واو " فقالوا : " بهو , وعليهو " فهذا هو الأصل "[3] .

والدرس الصوت الحديث أثبت ذلك أيضًا ؛ وذلك لأن صورة التتابع بين صوتي الكسر والضم فيه ثقل ؛ لأن فيه انتقال من ثقيل وهو الكسر إلى أثقل منه وهو الضم ، لذلك تم التخلص من هذا الثقل عن طريق تحويل حركة هاء الغائب والتي الأصل فيها الضم إلى حركة ما قبلها وهو الكسر ، وذلك حتى يعمل اللسان في اتجاه واحد .

والقراءات الآتية توضح ذلك :

القراءة الأولى : قرأ يعقوب بضم الهاء في (يأتيهم) ، وقرأ الجماعة بكسر الهاء مراعاة للياء ، وذلك في قوله تعالى : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (7)[4].

---

(1)ينظر : الكشف 379/1 , والتيسير ص 94 , والنشر 348/2 , والبحر المحيط 5 /8.

(2) ينظر : معاني القراء للفراء . تحقيق . أحمد يوسف نجاتي , محمد على النجار 5/1 – الدار المصرية للتأليف والترجمة , وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي . حققه . على عبد الباري عطية 64/25 – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الرابعة – 1405هـ 1985م , وإتحاف فضلاء البشر ص384 .

(3)الكشف 42/1 .

(4) ينظر : النشر 272/1، وإتحاف فضلاء البشر ص34 .

القراءة الثانية :قرأ أبو عمرو و حفص عن عاصم وأبو جعفر و يعقوب وورش وابن محيصن و اليزيدي والحسن "لبيوتهم"- بضم الياء –على الأصل , وقرأ الباقون :"لبيوتهم"-بكسر الياء - ؛ وذلك في قوله تعالى : (وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) (34)[1] .

القراءة الثالثة :قرأ يعقوب " نُرِيهُ " - بضم الهاء على الأصل , وقراءة الجماعة "نريهم"- بكسر الهاء- لمناسبة الياء في قوله تعالى : (وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (48)[2].

القراءة الرابعة: قرأ العمري عن أبي جعفر "تشتهيهُ"- بضم الهاء – في قوله تعالى : (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(71)[3].

وفي هذه القراءات الأربع تمَّ تحويل صورة الضمة القصيرة على هاء الغائب إلى صورة الكسرة القصيرة ،"فأصل حركة هاء الغائب هي الضمة ، ولكن تتابع الكسرة والضمة ثقيل مكروه . لذا تخلصت منه العربية عن طريق المماثلة بين حركة حرف الجر وهاء الضمير .وإذا كانت المماثلة قد تمت هاهنا منه بسبب ثقل تتابع حركة حرف الجر والضمير بعده ، فإن القياس قد عمَّم ذلك على ضمائر الغائب كلها : المفرد والمثنى والجمع ، المذكر والمؤنث على حد سواء ، وذلك كلما سبق الضمير بكسرة أو ياء[4] ".

قال بروكلمان :"وتتحول الضمة القصيرة الخالصة (u) في ضمير النصب والجر الغائب المفرد المذكر والجمع المذكر والمؤنث والمثنى إلى كسرة قصيرة خالصة (i) بتأثير ما قبلها من كسرة قصيرة (i) أو طويلة (i)[5]...".

ج- التماثل بين الحركات وشبه الحركات

إذا خرجت الواو والياء عن دائرة الصوامت والحركات الطويلة إلى صورة التسكين وفتح ما

---

(1)ينظر : النشر 226/2 ، وإتحاف فضلاء البشر ص155 ،385 .

(2)ينظر : النشر 272/1، وإتحاف فضلاء البشر ص122 .

(3) غاية الاختصار في قراءة العشرة أئمة الأنصار . الحسن بن أحمد الهمداني العطار . تحقيق . أشرف محمد فؤاد طلعت ص653 – الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم – جدة – الطبعة الأولى 1414هـ - 1994 م . نقلاً من معجم القراءات د. عبد اللطيف الخطيب 398/8 – دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة .

(4) أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية ص241 .

(5) فقه اللغات السامية . كارل برو كلمان . ترجمه عن الألمانية د. رمضان عبد التواب ص64 – مطبوعات جامعة الرياض – المملكة العربية السعودية – 1397هـ - 1977م .

قبلها فقد دخلت بذلك إلى دائرة أخرى تعددت المصطلحات حولها في الدرس اللغوي الحديث .

فبعض العلماء أطلق عليها "أشباه أصوات اللين " , حيث ذكر الدكتور/ إبراهيم أنيس تحت هذا العنوان :"هناك صوتان بين الأصوات اللغوية يستحقان دائمًا أن يعالجا علاجًا خاصًّا لأن موضع اللسان معهما قريب الشبه بموضعه مع أصوات اللين ؛ ومع هذا فقد دلَّت التجارب الدقيقة على أننا نسمع لهما نوعًا ضعيفًا من الحفيف , وهذان الصوتان هما ما اصطلح علماء العربية على تسميتهما بالياء والواو في مثل (بيت ، يوم).ففي تكون الياء نلحظ أن اللسان يكون تقريبًا في موضع النطق بصوت اللين (i) ؛ غير أن الفراغ بين اللسان ووسط الحنك الأعلى حين النطق بالياء يكون أضيق منه في حالة النطق بصوت اللين (i) ؛ مما يترتب عليه أننا نسمع ذلك النوع الضعيف من الحفيف ، فالياء لأنها تشتمل في النطق بها على حفيف ، يمكن أن تعد صوتًا ساكنًا .أما إذا نظر إلى موضع اللسان معها فهي أقرب شبهًا بصوت ، اللين (i) ، لهذا اصطلح المحدثون على تسمية الياء بشبه صوت اللين، وكذلك الواو لا فرق بينها وبين الضمة (u) إلا في أن الفراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك في حالة النطق بالواو أضيق منه في حالة النطق بالضمة (u) ؛ فيسمع للواو أيضًا نوع ضعيف من الحفيف جعلها أشبه بالأصوات الساكنة ، أما حين ينظر إلى موضع اللسان معها ، فيمكن أن نعدها شبه صوت اللين (u) . فالياء والواو هما المرحلة التي عندها يمكن أن ينتقل الصوت الساكن إلى صوت لين . والحقيقة أن الياء صوت انتقالي ، أي أنها تتكون من موضع اللين (i) ثم تنتقل بسرعة إلى موضع آخر من أصوات اللين ، وكذلك الواو يبدأ تكونها من موضع صوت اللين (u) ثم ينتقل اللسان بسرعة إلى موضع صوت لين آخر ، فكل من الياء والواو صوت انتقالي ، ومن أجل هذه الطبيعة الانتقالية ولقصرهما وقلة وضوحها في السمع إذا قيسا بأصوات اللين ، أمكن أن يعدا من الأصوات الساكنة[1] ".

وقد أطلق برجشتراسر عنوان (الحركات) أو (الحروف الصائتة) على هذا الباب فيقول :"وقد ميَّز قدماء العرب هذين الحرفين من سائر الحروف الهجائية وخصصوهما بمخرج وهو الأول عندهم وسموه بالجوف ، ونحن نخالفهم في ذلك ، فإنا نرى نطق الواو و الياء ، أو بالأحرى أوضاع أعضاء النطق الخاصة بنطقهما , مطابق تلك الخاصة بنطق الضمة والكسرة , مطابقة تامة فنعد الواو والياء بين الحركات ، أو الحروف الصائتة لا بين الحروف الصامتة[2].

---

(1) الأصوات اللغوية ص43 ،44. وينظر : علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص 180 .

(2) التطور النحوي ص46.

ولكن هذا كلام فيه تجوز كبير من المؤلِّف ؛ فالواو والياء الصامتان تفترقان عن الضمة والكسرة ، باحتكاك الهواء بمخرجيهما . علاوة على ذبذبات الأوتار الصوتية التي لا يوجد غيرها في نطق الحركات[1] ".

في حين ذهب الدكتور/ محمود السعران إلى أنهما في هذه الحالة من قبيل " أشباه الصوامت " حيث يقول تحت عنوان : " أشباه الصوائت " : "يطلق هذا المصطلح على " صوائت انزلاقية " يحدث فيها أن تبدأ الأعضاء بتكوين " صائت ضيق " (كالكسرة مثلا) ثم تنتقل بسرعة إلى " صائت " آخر أشد " بروزًا " ؛ ولا يدوم وضع الصائت الأول زمنًا ملحوظًا . والذي يدعو إلى إدراك هذه الأصوات " الصوامت " هو ما تتميز به من انتقال سريع مع ضعف في قوة النفس (= الزفير) وفي العربية صوتان ينطبق عليهما هذا الوصف هما الواو , مرادًا بها مثل واو " وجد " والياء , مرادًا بها مثل ياء " يزن[2] " .

ومن خلال قراءتين في سورة الزخرف ظهرت صورة التماثل بين الحركات وشبه الحركات وهما:

القراءة الأولى : قرأ أبو عمرو بكسر الهاء في (عليهم) وافقه اليزيدي والحسن ، وذلك في قوله تعالى: (أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ) (42)، وقوله تعالى : (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(71)[3] .

القراءة الثانية :قرأ حمزة ويعقوب والمطوعي بضم الهاء على الأصل في "لديهُم".وقراءة الباقين بكسرها لمناسبة الياء في قوله تعالى : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (80)[4].

ومن هنا ظهر دور التماثل بين الحركات وشبه الحركات ، وذلك من خلال صورة هاتين القراءتين , حيث ظهر كسر الهاء لمجاورة الياء الساكنة فهي سبب من أسباب الكسر، فقد يؤتى بكسر الحرف من أجل مجاورة الكسرة أو الياء الساكنة[5].

---

(1) المدخل إلى علم اللغة. ص54 .
(2) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص 179 , 180 .
(3) ينظر :إتحاف فضلاء البشر ص165 .
(4) ينظر:النشر 1/ 272 ، وإتحاف فضلاء البشر ص 123 ، 387 .
(5) ينظر :الحجة في القراءات السبع ص80 ، وإتحاف فضلاء البشر ص165.

ولكن ذلك لغة لغير أهل الحجاز كما ذكر سيبويه : "وأهل الحجاز يقولون مررت بهو قبل ، ولديهو مال ، ويقولون : فخسفنا بهو وبدارهو الأرض (القصص81)"[1].

وهذا التناسب بين الحركات وشبه الحركات يعد من قبيل التطور الصوتي كما ذكر أحد الباحثين المحدثين ذلك بقوله : "ولا شك في أن كسر الهاء في مثل "عليهم "و "به " و " لديه " يمثل تطورًا صوتيًّا قوامه المماثلة بين الحركات ، وبين الحركات و أشباه الحركات[2] ".

(1) الكتاب . سيبويه . تحقيق . عبد السلام محمد هارون 4/195 – دار الجيل – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى 1411هـ - 1991م .

(2) أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية ص242.

المبحث الرابع : الإبدال

من خلال علم التشكيل الصوتي وفي ضوء دائرة الصوامت والحركات ناقشت كثير من الدراسات الصوتية – قديمًا وحديثًا – ظاهرة الإبدال اللغوي .

وقد ظهر في عالم العربية كثير من المصنَّفات التي تحمل هذا العنوان ، في حين ناقشته مصنَّفات أخرى ضمن مباحثها اللغوية ، وفي هذا وذاك ما يمكن أن يكون له وجه ، ومنه مالا وجه له .

وحتى نتمكن من ضبط الأمثلة التي يمكن أن يكون لها وجه في الإبدال ، والأمثلة الخارجة عن نطاقه كان لابد من توضيح معالم هذه الظاهرة حتى نتمكن من دراستها في سورة الزخرف .

أولا – ضابط الإبدال :

في ضوء الصوامت والحركات والضوابط والمعايير الخاصة بالإبدال اللغوي ذكر علماء اللغة المحدثون أنه عبارة عن " جعل حرف بدل حرف آخر من الكلمة الواحدة وفي موضعه منها لعلاقة بين الحرفين أو حركة مكان أخرى . أو هو تغيير صوت إلى آخر من الكلمة الواحدة وفي موضعه منها لعلاقة بين الصوتين بتأثير البيئة اللغوية المحيطة[1] " .

ثانيًا – العلاقة الصوتية:

أمكن تحديد صور الإبدال اللغوي في العربية من خلال وضع بعض المعايير والضوابط التي تؤصِّل لها ، حيث ذكر كثير من علماء اللغة أن دائرة المخارج والصفات والتقارب بينهما هي المعيار لتحقيق ذلك ، وأنه لا وجه لهذه الأمثلة التي فقدت هذه المعايير .

إذًا وحتى يتحقق الإبدال كان لابد من الاتفاق في النوع ،" ونعني بالاتفاق في النوع : أن يتقارب الصوتان في المخرج أو يتحدا في جميع الصفات ما عدا الإطباق ، فمن أمثلة التقارب في المخرج تناوب الميم والنون في مثل امتقع لونه وانتفع ، واللام والنون في مثل أسود حالك وحانك ، وفلان خامل الذكر وخامنه ، والراء واللام في مثل هدر الحمام وهدل ... ومن أمثلة الاتفاق في

---

(1) قضايا ونظرات في فقه اللغة العربية د.إبراهيم محمد أبو سكين ص50-الطبعة الثانية 1997/1996م.وينظر: اللهجات العربية د.إبراهيم نجا ص71 – مطبعة السعادة 1379هـ -1960م ، والاشتقاق .عبد الله أمين ص333 – مكتبة الخانجى بالقاهرة – الطبعة الثانية 1420هـ -2000م، والتطور اللغوي التاريخي د.إبراهيم السامرائي صـ110 – دار الأندلس – الطبعة الثانية 1983م ، واللهجات العربية نشأة وتطورًا ص120 .

الصفات ما عدا الإطباق تناوب الصاد والسين في مثل ساطع وصاطع ، والصراط ، والسراط ، وسخره في العمل وصخره ، وخطيب مسقع ومصقع ، وصقر وسقر ، والصدغ والسدغ[1]" .

ومن هنا " لا يكون الإبدال إبدالا حقًّا إلا إذا كان بين البدل والمبدل منه علاقة صوتية كقرب المخرج ، أو الاشتراك في بعض الصفات كالجهر والهمس والشدة والرخاوة[2] " .

ثالثا : أسباب الإبدال :

إذا كان الدرس الصوتي قديمًا قد عرض لنشأة ظاهرة الإبدال اللغوي على أنها من قبيل اختلاف اللهجات ، أو كثرة التصرف وشيوع الاستعمال[3] ، فإن بعض علماء الدرس الصوتي الحديث يرون أن التطور الصوتي هو المبدأ الأصيل للحكم عليها ، والذي يمكن أن يدخل أحيانًا في باب (اختلاف اللهجات) .

وقد ذكر الدكتور/إبراهيم أنيس تفصيل هذا الرأي بقوله : " حين نستعرض تلك الكلمات التي فسرت على أنها من الإبدال حينًا ، أو من تباين اللهجات حينًا آخر ، لا نشك لحظة في أنها جميعًا نتيجة التطور الصوتي ، أو أن الكلمة ذات المعنى الواحد حين تروى لها المعاجم صورتين أو نطقين ويكون الاختلاف بين الصورتين لا يجاوز حرفًا من حروفها ، نستطيع أن نفسرها على أن إحدى الصورتين هي الأصل والأخرى فرع لها أو تطور عنها ، غير أنه في كل حالة يشترط أن نلحظ العلاقة الصوتية بين الحرفين المبدل والمبدل منه[4] " .

ولكن كثيرًا من علماء اللغة المحدثين يرون أن مبدأ اختلاف اللهجات، والذي أصَّله الدرس الصوتي قديمًا هو الأقرب لتعليل وجود هذه الظاهرة في العربية , حيث قيل : " فالحق أحق أن يتبع

---

(1) فقه اللغة د.علي عبد الواحد وافي ص184 ،185.

(2)القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص73.

(3) ينظر :إصلاح المنطق لابن السكيت .تحقيق .أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون ص 175،176 – دار المعارف – الطبعة الرابعة 1368هـ – 1949م ،والمخصص لابن سيده 94/1 وما بعدها – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان- الطبعة الأولى1417هـ -1996م ، والخصائص لا بن جني .تحقيق. محمد علي النجار373/1 –الهيئة المصرية العامة للكتاب –الطبعة الثالثة 1407هـ-1987م ، وشرح المفصل 7/1 وما بعدها ، والمزهر في علوم اللغة للسيوطي. تحقيق . محمد جاد المولي وآخرين 475/1 – دار التراث – الطبعة الثالثة دت.

(4) من أسرار اللغة د.إبراهيم أنيس ص75 .

وهو أن الإبدال ينشأ من اختلاف اللغات كما ذهب إلى ذلك أبو الطيب اللغوي[1] " .

وذكر الدكتور/ على عبد الواحد وافي أنه "يرجع السبب في كثير من ظواهر هذا التناوب إلى اختلاف القبائل في النطق بأصوات الكلمة ، فمادة كشط مثلا كانت تنطقها قريش بالكاف على حين أن أسدًا و تميمًا كانت تنطقانها بالقاف[2] ".

ولكن قد تعود بعض صور الإبدال إلى مثل ذلك وقد تعود لغيرها من أسباب أخرى كما ذكر الدكتور/ عبد الغفار هلال : " يبدو أن الأسباب التي دعت – وتدعو– إلى استعمال بعض الحروف مكان بعض كثيرة ومتشعبة ، وربما يرجع الاختلاف بين الأصوات إلى واحد أو أكثر منها ، فإلى جانب اختلاف اللهجات نجد آثارًا أخرى للتطور الصوتي ولاختلاف الزمان والمكان ، وعلم اللغة الحديث يثبت بالتجربة اختلاف البيئات الصحراوية والزراعية و الصناعية وغيرها في اتجاه القاطنين بها ، كما أن العزلة والاختلاط الاجتماعي والثقافة والحضارة مما يكون له أثر في أبناء اللغة الواحدة ، فتختلف لغة فريق عن الآخر من بني جنسه ، ولهذا أثره في تغير الأصوات وتبدلها ، كما أن الحالة النفسية لها آثارها في النطق ، وعزا بعض الباحثين المحدثين تطور الأصوات من شدة إلى رخاوة أو العكس إلى الحالة النفسية ، وهناك دواع لغوية من تأثر الصوت اللغوي بما يجاوره فيما يسمى بالمماثلة أو المخالفة ولذلك أثره في الإبدال ، كما أن بعض الكلمات تتحد في المعنى والحروف إلا حرفًا واحدًا مع خلاف في أصلها الاشتقاقي فيؤدي ذلك من حيث الظاهر إلى دخولها في نطاق الإبدال ، وقد يؤدي تطور المعنى في بعض الألفاظ إلى اتحادها معنى مع تقارب أصواتها بما يوهم وقوع التبادل فيها , وللتصحيف و التحريف أثر في نشأة بعض الكلمات التي عدت من الإبدال . إلى غير ذلك من الأسباب[3] " .

رابعًا – صور الإبدال في سورة الزخرف:

سيطر الإبدال بين الحركات القصيرة على معظم صور الإبدال في القراءات القرآنية في سورة الزخرف ، حيث لم يأت الإبدال بين الصوامت فيها إلا من خلال الصورة الأولى فقط ، في حين مَثَّل

(1) اللهجات العربية د.إبراهيم نجا ص75 .

(2) فقه اللغة د.على عبد الواحد وافي ص185 .

(3) النظريات النسقية في أبنية العربية دراسة في علم التشكيل الصوتي د.عبد الغفار حامد هلال ص113– دار الكتاب الحديث 1430هـ–2009م.وينظر : اللهجات العربية نشأة وتطورًا ص144:161.

الإبدال بين الحركات القراءات الست الأخرى ، والتي تمَّ عرضها من خلال الصور الأربع التي تلي الصورة الأولى .

الصورة الأولى : الإبدال بين الصاد و السين

قرأ قنبل من طريق ابن مجاهد وكذا رويس بالسين حيث وقع ، وافقهما ابن محيصن و الشنبوذي ، و الباقون بالصاد في لفظة (صراط) في قوله تعالى : (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (43)[1] .

وللتعليق على صورة الإبدال هنا نرى أن العلاقة الصوتية واضحة تمامًا بين صوتي السين والصاد .

فأولا ومن خلال المخرج فعند " النطق بالسين يندفع الهواء مارًّا بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يأخذ مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج ، وهو عند التقاء طرف اللسان بالثنايا السفلى أو العليا بحيث يكون بين اللسان والثنايا مجرى ضيق جدًّا يندفع خلاله الهواء فيحدث ذلك الصفير العالي ، هذا إلى اقتراب الأسنان العليا من السفلى في حالة النطق بهذا الصوت[2] " .

وأما صوت الصاد فهو " يشبه السين في كل شيء سوى أن الصاد أحد حروف الإطباق ، فعند النطق بالصاد يتخذ اللسان وضعًا مخالفًا لوضعه مع السين ، إذ يكون مقعرًا منطبقًا على الحنك الأعلى ، مع تصعد أقصى اللسان وطرفه نحو الحنك ومع رجوع اللسان إلى الوراء قليلا ككل الأصوات المطبقة[3] " .

وإذا كانت صفة الإطباق تفرِّق بينهما ، فهما معًا من الأصوات الاحتكاكية ، حيث " تتكون الأصوات الاحتكاكية بأن يضيق مجرى الهواء الخارج من الرئتين في موضع من المواضع ويمر من خلال منفذ ضيق نسبيًّا يُحدث في خروجه احتكاكًا مسموعًا ، والنقاط التي يضيق عندها مجرى الهواء كثيرة متعددة[4] " .

---

(1) ينظر : السبعة في القراءات ص105، وحجة القراءات ص80 ، والتيسير ص18، والكشف 34/1 , وإتحاف فضلاء البشر ص163.

(2) الأصوات اللغوية ص76 .وينظر :علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص175 ، وأصوات اللغة د.عبد الرحمن أيوب ص204 ، وعلم الأصوات ص301 .

(3) الأصوات اللغوية ص76. وينظر :علم الأصوات ص301،302.

(4) علم الأصوات ص297.

وكذلك تجمع بينهما صفة الهمس أو عدم الاهتزاز ، والتي تتحقق عندما " ينفرج الوتران الصوتيان بعضهما عن بعض في أثناء مرور الهواء من الرئتين ، بحيث يسمحان له بالخروج دون أن يقابله أي اعتراض في طريقه ، ومن ثم لا يتذبذب الوتران الصوتيان ، وفي هذه الحالة يحدث ما يسمى بالهمس ، والصوت اللغوي الذي ينطق في هذه الحالة يسمى الصوت المهموس ، فالصوت المهموس إذن هو الصوت الذي لا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به[1] " .

وإضافة إلى هذا الالتقاء المخرجي والتشابه في كثير من الصفات الصوتية فما سوَّغ هذا الإبدال أيضًا هو وجود صوت الطاء في لفظة (صراط) ، والتي تتجانس وتلتقي مع صوت الصاد في صفتي الإطباق والتفخيم ، " فاللسان مع الطاء يتخذ شكلا مقعرًا منطبقًا على الحنك الأعلى ، ويرجع إلى الوراء قليلا[2] " .

إذًا فحجة القراءة بالسين رجوع إلى الأصل ، وأما القراءة بالصاد فلمناسبة حرف الطاء ، حيث قيل : " وأما حجة من قرأ بالسين مع هذه الحروف : أنه الأصل , والدليل أن السين هي الأصل أنه لابد أن تكون السين هي الأصل أو الصاد هي الأصل ، فلو كانت الصاد هي الأصل ما جاز أن تُرَدَّ إلى السين ، إذ لا علة توجب ذلك ، وإذ لا ينقل الحرف إلى أضعف منه ، والصاد أقوى بكثير لإطباقها واستعلائها ، فإذا لم يجز أن تُرَدَّ الصاد إلى السين ، وجاز رد السين إلى الصاد ، عُلِمَ أن السين هي الأصل داخلة عليها لعلة[3] " .

وأما " حجة من قرأ بالصاد مع الطاء : أن السين حرف مستفل ، غير مطبق ، فلما وقعت بعده الطاء ، وهى مطبقة مستعلية ، صعُب أن يخرج اللافظ من تَسفُّل إلى تصعُّد ، وذلك صعب ... فأبدل منها حرفًا يؤاخي السين في المخرج و الصفير ، ويؤاخي الطاء في الإطباق و الاستعلاء ، وهو الصاد ، فكأن السين هي الأصل لم تزل ، إذ قد خلفها حرف من مخرجها ، ومن صنفها في الصفير ، فعمل اللسان بذلك عملا واحدًا ، متصعدًا منطبقًا بالحرفين معًا[4] " .

---

(1) السابق ص174.

(2) الأصوات اللغوية ص62.

(3) الكشف 302/1 ،303.وينظر :حجة القراءات ص139، والمحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني .تحقيق .على النجدي و آخرين 168/2 ،282 ،283-القاهرة 1415هـ-1994م.

(4) الكشف 302/1 ،303 .وينظر :الحجة في القراءات السبع لابن خالويه .تحقيق د.عبد العال سالم مكرم ص62- مؤسسة الرسالة – الطبعة الخامسة 1410هـ-1990م، وحجة القراءات ص139.

وبالرغم من وجود هذه العلاقة الصوتية التي تسوِّغ الإبدال بين صوتي السين والصاد ، إلا أنهما في الوقت نفسه وفي هذه الكلمة لغتان عن العرب ، حيث ذكر أبو حيان عن (الصراط) أن " إبدال سينه صادًا هي الفصحى ، وهي لغة قريش ، وبها قرأ الجمهور[1] " .

الصورة الثانية : الإبدال بين الضم و الكسر :

ظهر الإبدال بين صوتي الضم و الكسر في عدة قراءات في سورة الزخرف يمكن عرضها على النحو الآتي :

القراءة الأولى

قرأ الجمهور بضم الهمزة في (أمة) ، في حين قرأ بكسرها عمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والجحدري ، وذلك في قوله تعالى :(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ) (22)، وقوله تعالى : (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) (23)[2].

من خلال هذه الصورة التي تم التبادل فيها بين الضم و الكسر على صوت الهمزة في لفظة (أمة) في هاتين الآيتين لم يلحظ العلماء أي فرق من فروق الدلالة بينهما حتى يمكن أن تخرج هذه الصورة من دائرة الإبدال بل ظهر توحد المعنى ، فضم الهمزة بمعنى الطريقة والدين وكذلك القراءة بالكسر ، حيث يقول الجوهرى :"إمة :لغة في الأمة :وهي الطريقة والدين[3] ".

القراءة الثانية

قرأ الجمهور بضم السين في (سخريًّا) ، في حين قرأ بكسرها ابن عامر وعمرو بن ميمون وابن أبى ليلى وأبو رجاء والوليد بن مسلم وابن محيصن وابن مجاهد ، وذلك في قوله تعالى : (ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا) (32)[4].

---

(1) البحر المحيط 143/1 .

(2) ينظر :الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) 74/16-دار الشعب –القاهرة ،والبحر المحيط 12/8.

(3) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري .تحقيق .أحمد عبد الغفور عطار (أم م) 1864/5- دار العلم للملايين – الطبعة الثالثة 1404هـ-1984م.وينظر :الدر المصون 581/9.

(4) ينظر :إتحاف فضلاء البشر ص495،والجامع لأحكام القرآن 83/16،والبحر المحيط 14/8، وروح المعاني 79/25،والدر المصون 584/9.

حاول بعض العلماء إيجاد بعض الفروق الدلالية بين القراءتين حتى تخرج هذه الصورة من دائرة الإبدال ، فذهب أبو عبيدة وأبو عمرو ويونس ، وكذلك الحسن وقتادة إلى أنه ما كان من العبودية فهو سُخْري بالضم ، وما كان من الهزء فبالكسر[1].

وفي ضوء ذلك يمكن تفسير دلالة القراءة بالضم على أن (سخريًّا) في قوله تعالى : (ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًّا) : " ليستعمل بعضهم بعضًا في مصالحهم ويستخدموهم في مهنهم ويسخروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم لا لكمال في الموسع عليه ولا لنقص في المقتر عليه ، ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا ،فإذا كانوا في تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم من متاع الدنيا الدنية وهم على طرف التمام بهذه الحالة فما ظنهم بأنفسهم في تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العيوق ، ومن أين لهم البحث عن أمر النبوة و التخير لها من يصلح لها ويقوم بأمرها ، والسخري على ما سمعت نسبة إلى السخرة وهي التذليل والتكليف ، وقال الراغب : السخرى هو الذي يقهر أن يتسخر بإرادته[2] ....".

ولكن ذكر ابن عطية أنهما لغتان في معنى التسخير ، ولا مدخل لمعنى الهزء في هذه الآية[3].

وكذلك أبو حيان على أنه "يبعد أن يكون سخريًّا هنا من الهزء . وقد قال بعضهم : أي يهزأ الغنى بالفقير[4]".

والراجح أن الضم والكسر في (سخريًّا) لغتان لمعنى واحد ، ولا داعي لتلمس الفروق الدقيقة بين الضم والكسر في هذه الصورة ؛ لأن معنى الاستهزاء فيها بعيد ، بل هو في الآية "من التسخير بمعنى الاستعباد والاستخدام ليرتفق بعضهم ببعض ويصلوا إلى منافعهم ولو تولَّى كل واحد جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك وضاع وهلك[5] ".

---

(1) الحجة للقراء السبعة لأبي على الفارسي ،حققه . بدر الدين فهوجي ، وبشير جويجاتى 303/5-دار المأمون للتراث –الطبعة الثانية 1413هـ1993م . وينظر : حجة القراءات ص2492 , والكشف 131/2.

(2) روح المعاني 78/25. وينظر : المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني . تحقيق . محمد سيد كيلانى ص227 – دار المعرفة – لبنان ، والجامع لأحكام القرآن 83/16.

(3) المحرر الوجيزة 53/5.

(4) البحر المحيط 14/8. وينظر : الدر المصون في علوم الكتاب المبين للسمين الحلبي . تحقيق د. أحمد محمد الخراط 584/9 – دار القلم – دمشق .

(5) البحر المحيط 14/8.

القراءة الثالثة

قرأ أبو حيوة بكسر الكاف في (ينكثون) ، وبضمها قرأ الجماعة في قوله تعالى : (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ) (50)[1].

لاخلاف بين العلماء في أن لفظة (ينكثون) في الآية السابقة بكسر الكاف وضمها تحمل دلالة واحدة وهى نقض العهد والإصرار على الكفر ، حيث ذكر الثعلبى عن توجيه الدلالة فيها أنها بمعنى " ينقضون عهدهم ويصرُّون على كفرهم ويتمارون في غيهم[2]".

فالكسر والضم هنا لغتان عن العرب ، حيث ذكر السمين الحلبي أن ينكثون بكسر الكاف وهى لغة[3].

القراءة الرابعة

بضم الصاد في (يصدون) قرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر وخلف والحسن والأعمش وإبراهيم النخعى وشيبة ويحيى بن وثاب وعلى بن أبى طالب وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو عبيد بن عمير والأعرج وأبو رجاء والأعشى والبرجمى ، في حين قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر الصاد ،وهى قراءة ابن عباس ،وذلك في قوله تعالى : (وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) (57)[4].

ذهب بعض العلماء إلى اختلاف الدلالة بين قراءتي الكسر والضم في لفظة (يصدون)،وذلك على اعتبار أن (يصدون) – بضم الصاد – من الضجيج ، وبكسرها بمعنى الإعراض ، حيث ذكر الألوسي أن الكسر في (يصدون) على أن المعنى :" ولما ضرب ابن الزبعرى عيسي بن مريم مثلا وحاجك بعبادة النصارى إياه إذا قومك من ذلك ولأجله يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحًا وجذلا ،...و"يصدون" – بضم الصاد – من الصدود، وروى ذلك عن على – كرَّم الله وجهه –، وأنكر ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – هذه القراءة ، وهو قبل بلوغه تواترها ، والمعنى عليها إذا قومك من

---

(1) ينظر :النشر 36/2، وإتحاف فضلاء البشر ص75 ، والبحر المحيط 22/8، والدر المصون 596/9 ، وروح المعاني 25 /88 .

(2) تفسير الثعلبي 338/8.

(3) الدر المصون 596/9.

(4) ينظر :السبعة ص587، والكشف 260/2، وحجة القراءات ص652،والتيسير ص197،والنشر 369/2، وإتحاف فضلاء البشر ص 496، وجامع البيان 86/25 .

أجل ذلك يعرضون عن الحق بالجدل بحجة داحضة واهية ، وقيل : المراد يثبتون على ما كانوا عليه من الإعراض[1] ".

وكذلك ذكر ابن خالويه قبل ذلك أن "الحجة لمن ضم :أنه أراد يعدلون ويعرضون .ودليله قوله : (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ) (الأنعام35) ،والحجة لمن كسر : أنه أراد يصيحون .ودليله على ذلك مجيء منه قبلها ، ولو كانت بمعنى الإعراض لجاءت معها عن كقوله : (أو أعرض عنهم) (المائدة42)[2]".

إذًا وعلى هذا الرأي فـ" حجة من ضم أنه على معنى "يعدلون ويعرضون عما جئتم به، " فالمعنى :إذا قومك من أجل المثل يعدلون عما جئتم به ، وحجة من قرأ بالكسر أنه على معنى "يضجُّون". وقيل معناه يضحكون ، أي: يضحكون من ضرب المثل بعيسى . فـ "من" متعلقة بـ "يصدون" في هذه القراءة ، وقيل : هي متعلقة في القراءة الأخرى بأول الكلام[3]...".

ولكن الراجح أنهما بالكسر والضم لغتان لمعنى واحد ،حيث" قال أبو جعفر :حكي الكسائى والفراء أن يصِدون ويصُدون لغتان بمعنى واحد كما يقال نمَّ ينِمُّ وينُمُّ وشدَّ يشِدُّ ويشُدُّ[4] ... ".

وذكر ابن خالويه أنه قد" قيل كسر الصاد وضمها وإدخال الألف في أول الفعل وإخراجها بمعنى واحد[5]".

وأكَّد ذلك صاحب التسهيل عندما ذكر عن قراءة الضم أن فيها " يصدون : أي يضحكون و يصيحون من الفرح ، وهذا المعنى إنما يجرى على قراءة يصدون بكسر الصاد بمعنى الضجيج والصياح[6]".

---

(1) روح المعاني 92/25 . وينظر :إعراب القرآن للنحاس .تحقيق د.زهير غازي زاهد 376/6-عالم الكتب – بيروت – الطبعة الثالثة -1409هـ -1988م ، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن . محمد الأمين الشنقيطى .تحقيق .مكتب البحوث والدراسات 123/7- دار الفكر – بيروت – 1415هـ-1995م ، والتفسير الكبير أو مفاتيح الغيب . فخر الدين الرازي 190/29 – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى 1421هـ - 2000م .

(2) الحجة في القراءات السبع ص322.

(3) الكشف 260/2. وينظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري . تحقيق .عبد الرزاق المهدي 262/4- دار إحياء التراث العربي .

(4) إعراب القرآن للنحاس 174/1 . وينظر : الحجة في القراءات السبع ص322، وجامع البيان 86/25.

(5) الحجة في القراءات السبع ص322.

(6) التسهيل 31/4. وينظر :جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري 86/20- دار الكفر – بيروت 1405هـ ، والتفسير الكبير 190/2 ، وتفسير السمرقندى 249/3.

لذلك ذكر الطبري عن القراءتين أن " الصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان ولغتان مشهورتان بمعنى واحد ، ولم نجد أهل التأويل فرَّقوا بين معنى ذلك إذا قرئ بالضم والكسر ، ولو كان مختلفًا معناه لقد كان الاختلاف في تأويله بين أهله موجودًا وجود اختلاف القراءة فيه باختلاف اللغتين ، ولكن لما لم يكن مختلف المعنى لم يختلفوا في أن تأويله يضجون ويجزعون . فبأي القراءتين قرأ القارئ فمصيب[1]".

الصورة الثالثة - الإبدال بين الفتح والضم :

من خلال قراءة واحدة في سورة الزخرف ظهرت صورة الإبدال بين صوتي الفتح والضم ، حيث قرأ بضم الصاد في (صفحًا) :حسان بن عبد الرحمن الضبعى والسميط بن عمرو وشبيل بن عذرة والباقون بفتحها[2] .

ذكر بعض العلماء أن تبادل الفتح والضم على صوت الصاد في (صفحًا) لغتان لمعنى واحد ، حيث ذكر العكبرى :"وقرئ بضم الصاد ، والأشبه أن يكون لغة[3]".

وكذلك ذكر أبو حيان أن ضم الصاد وفتحها "لغتان كالسَّد والسُّد[4] ".

ولكن لا نستطيع أن نحكم على القراءتين هنا بأنهما من قبيل اللغات فتتوحَّد الدلالة ، أو من قبيل اختلاف الدلالة فالأمر هنا يحتمل هذا الرأي وذاك ، حيث يقول الزمخشرى :"و(صفحًا) على وجهين : إما مصدر من صفح عنه :إذا أعرض منتصب على أنه مفعول له على معنى أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضًا عنكم ، وإما بمعنى الجانب من قولهم : نظر إليه بصفح وجهه . وصفح وجهه على معنى : أفننحيه عنكم جانبًا فينتصب على الظرف كما تقول : ضعه جانبًا وامش جانبًا ، وتعضده قراءة من قرأ (صفحًا) بالضم ، وفي هذه القراءة وجه آخر وهو أن يكون تخفيف صفوح جمع صفح وينتصب على الحال : أي صافحين معرضين[5]".

---

(1) جامع البيان86/25 .

(2) ينظر :البحر المحيط7/8، والدر المصون 573/9 , وروح المعاني 65/25.

(3) إملاء ما مَنَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات لأبي البقاء العكبري .تحقيق . إبراهيم عطوة عوض 226/1- المكتبة العلمية – لاهور - باكستان .

(4)البحر المحيط 7/8 ، 8 .

(5) الكشاف 241/4.

الصورة الرابعة - الإبدال بين الفتح والكسر :

بكسر السين في (يحسبهم) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو والكسائي ، وبفتح السين قرأ الباقون ؛ وذلك في قوله تعالى :(وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون)(37)،وقوله تعالى :(أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم)(80)[1].

ولا خلاف بين العلماء من أن الفتح والكسر في (يحسبون) لغتان لمعنى واحد، حيث ذكر النحاس :"يقال حسب يحسَب ويحسِب لغتان والقياس الفتح مثل حذر يحذر إلا أن الكسر أكثر في كلام العرب[2]".

"فالحجة لمن فتح : أنه أتى بلفظ المضارع على ما أوجبه بناء ماضيه ؛ لأن (فَعِل) بالكسر يأتي مضارعه على (يفعِل) بالفتح قياس مطرد . والحجة لمن كسر :أن العرب استعملت الكسر والفتح في مضارع أربعة أفعال : يحسب ، وينعم ، ويئس ، ويبس حتى صار الكسر فيهن أفصح[3]".

وبعد هذا العرض الذي قدَّمناه لصور الإبدال في القراءات القرآنية في سورة الزخرف نرى أنه تمثيل واضح لاختلاف اللهجات العربية ، فبعض القبائل تؤثر النطق بصورة صوتية معينة ، في حين تميل الأخرى إلى صورة أخرى ، مع الاتفاق في المعنى في الصورتين .

وهذه الحقيقة أكَّدها كثير من المحدثين ومن قبل أكَّدها أبو الطيب اللغوي قديمًا عندما قال عن الإبدال : "ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة ، تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد، حتى لا يختلفا إلا في حرف واحد ، قال : والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طورًا مهموزة وطورًا غير مهموزة ، ولا بالصاد مرة ، وبالسين أخرى ؛ وكذلك إبدال لام التعريف ميمًا ، والهمزة المصدرة عينًا ، كقولهم في أن عن ،لا تشترك العرب في شيء من ذلك ، إنما يقول هذا قوم وذاك آخرون[4]".

---

(1) ينظر :تحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري .تحقيق د.أحمد محمد مفلح القضاة ص314 – دار الفرقان – الأردن-عمان – الطبعة الأولى 1421هـ - 2000م ، وإتحاف فضلاء البشر ص386، وإعراب القرآن للنحاس 122/4.

(2) إعراب القرآن للنحاس 122/4.

(3) الحجة في القراءات السبع ص103 . وينظر :الحجة للقراء السبعة 402/2 ، وحجة القراءات ص148.

(4) المزهر في علوم اللغة 460/1 .

المبحث الخامس : المقطع الصوتي

من خلال دائرة التركيب بين الصوامت والحركات ظهر المقطع الصوتي في العربية ، وذلك باعتباره يمثل أولى حدود ما يسمى بعلم التشكيل الصوتي.

ولما كانت إحدى الحدود الفاصلة بين الصوامت والحركات تأتي عن طريق اعتراض الهواء اعتراضًا كاملا أو جزئيًّا عند النطق بالأولى ، في حين يتلاشى هذا الاعتراض تمامًا عند النطق بالثانية ، كانت الصورة الأولي غالبًا أقل في درجة الوضوح السمعي من الأخرى، ومن ثم ظهرت قمة المقطع الصوتي في الصورة الثانية ، على حين ظهرت الصورة الأولى في قاعدته. "فالأصوات الساكنة بطبيعتها ، أقل وضوحًا في السمع من أصوات اللين ،على أن المحدثين لاحظوا أن اللام والنون والميم أصوات عالية النسبة في الوضوح السمعي وتكاد تشبه أصوات اللين في هذه الصفة ،مما جعلهم يسمونها أشباه أصوات اللين . وقد شاهد المحدثون أنه في حالة تسجيل الذبذبات الصوتية لجملة من الجمل فوق لوح حساس ، يظهر أثر هذه الذبذبات في شكل خط متموج ، ويتكون هذا الخط من قمم ووديان . وتلك القمم هي أعلى ما يصل إليه الصوت من الوضوح . وأصوات اللين تحتل في معظم الأحيان تلك القمم ، تاركة الوديان للأصوات الساكنة . وقد وجد المحدثون أن اللام والنون والميم تمثل القمم في بعض الأحيان مثلها في هذا مثل أصوات اللين ، ولهذا اعتبروا أصوات اللين ومعها اللام والنون والميم أصواتًا مقطعية ؛ لأنها هي التي تحدد المقاطع الصوتية في الكلام[1]".

وتتفاوت أصوات اللين في درجة هذا الوضوح "فليست كل أصوات اللين ذات نسبة واحدة في الوضوح السمعي ، بل منها الأوضح ، فأصوات اللين المتسعة أوضح من الضيقة ،أي أن الفتحة أوضح من الضمة والكسرة . كما أن الأصوات الساكنة ليست جميعها ذات نسبة واحدة فيه ، بل منها الأوضح أيضًا ، فالأصوات المجهورة أوضح من الأصوات المهموسة[2]".

والباحث في هذا المبحث الخاص بالمقطع الصوتي يركز على عدة حقائق تجمع بين الجانب النظري و التطبيقي ؛ وذلك حتى تتضح معالمه في العربية عامة ، وفى السورة القرآنية مجال البحث خاصة .

([1]) الأصوات اللغوية ص150 ، 151.

([2])السابق ص 29.

أولا - ضابط المقطع الصوتي :

من خلال درجة الوضوح السمعي قرَّر ماريوباى أن المقطع الصوتي هو :"قوة إسماع غالبًا ما تكون صوت علة ، أي تتابع من الأصوات الكلامية له حدًّا أعلى أو قمة إسماع طبيعية تقع بين حدَّين أقل إسماعًا[1]".

في حين نظر بعض العلماء إلى المقطع الصوتي من ناحيته الوظيفية فقال أحدهم : "هو كمية من الأصوات ، تحتوى على حركة واحدة ، ويمكن الابتداء بها والوقوف عليها[2] ".

وقيل : "هو عبارة عن تأليف صوتي بسيط تتكون منه ، واحدًا أو أكثر ، كلمات اللغة ، متفق مع إيقاع التنفس الطبيعي ، ومع نظام اللغة في صوغ مفرداتها[3]".

ولكن من العلماء من نظر إلى حالته الفسيولوجية النطقية فذكر أنه" وحدة من عنصر أو أكثر يوجد خلالها نبضة صدرية واحدة قمة إسماع أوبروز[4]".

وفى ضوء هذه التعريفات يمكن أن نقول بأن المقطع الصوتي يجمع بينهم جميعًا وإن اختلفت المصطلحات والعبارات ؛ لأن النتيجة في النهاية واحدة ، وهى أن المقطع الصوتي يظهر وجوده من خلال الحركات التي تمثل قمَّته باعتبارها أكثر وضوحًا من الأصوات الصامتة ، ثم هو بعد ذلك يأتي عن طريق تكوينه من خلال الصوامت والحركات , وأخيرًا قمة الإسماع والبروز فيه تأتي عن طريق تلك النتيجة الصوتية التي تصعد من خلال عملية النطق.

ثانيا - أهميه الدرس المقطعي:

للمقطع الصوتي أهمية كبيرة في عالم العربية ، فقد " يحتاج الباحث إلى تقسيم الكلام المتصل إلى مقاطع صوتية ، عليها تبنى في بعض الأحيان الأوزان الشعرية ، وبها يعرف نسيج الكلمة في لغة من اللغات[5]".

---

(1) أسس علم اللغة. ماريوباي .ترجمة. د. أحمد مختار عمر ص96 –عالم الكتب - الطبعة الثانية 1419هـ-1998م.

(2) المدخل إلى علم اللغة ص101.

(3) علم الأصوات .برتيل مالبرج . ترجمة وتعريب د . عبد الصبور شاهين ص164- مكتبة الشباب 1988م .

(4) دراسة الصوت اللغوي ص 284.

(5) الأصوات اللغوية ص150.

ومن خلال ذات هذه الأهمية ذكر الدكتور/ رمضان عبد التواب : " ودراسة نظام المقاطع في أيه لغة من اللغات ، مما يعين على معرفة الصيغ الجائزة فيها , كما يعين على معرفة موسيقى الشعر وموازينه[1] ".

ومن أهمية الدرس المقطعي أيضًا : "أن المقطع أساس لاكتساب طريقة النطق المطابقة لنطق أصحاب اللغة ، فأحسن طريقة للتعود على النطق الصحيح للنغمات الصوتية ، وللوقفات الموجودة في لغة أجنبية ، هي نطق الكلمات أو مجموعة الكلمات ببطء ، مقطعًا مقطعًا مع الوقفات الصحيحة بين كل مقطع ومقطع ، وبالتدريج يزيد المرء من سرعة نطقه للحدث الكلامي حتى يصل إلى السرعة العادية[2] ".

كذلك فـ " المقطع هو أكبر وحدة تحتاج إليها في شرح كيفية تجمع الفونيمات في اللغة ، فإذا فحصنا تركيب مقطع مفرد يمكننا أن نعتبر الوحدات الكبرى كتتابعات من المقاطع[3] ".

ثالثًا- أشكال المقطع الصوتي في العربية :

تتعدد أشكال المقطع الصوتي وتختلف نتيجة لطبيعة بنائه في كل لغة ، فقد تجيز لغة ما لا تجيزه لغة أخرى .

وقد عمدت العربية في تشكيل مقاطعها إلى رسم مجموعة من الحدود والقيود لا تحيد عنها ؛ وذلك حتى يتم التناسق والتناسب في داخل حدود الكلمة العربية .

"فالمقطع في العربية ينماز بمجموعة من الخواص العامة أهمها ما يلي :

1- المقطع في العربية يتكون من وحدتين صوتيتين (أو أكثر) إحداهما حركة ، فلا وجود لمقطع من صوت واحد ، أو مقطع خال من الحركة .

2- المقطع لا يبدأ بصوتين صامتين ، كما لا يبدأ بحركة ...

3- لا ينتهي المقطع بصوتين صامتين إلا في سياقات معينة ، أي عند الوقف أو إهمال الإعراب .

---

(1) المدخل إلى علم اللغة ص102 .

(2) أسس علم اللغة ص97 .

(3) الفنولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم د. محمد رزق شعير ص 67 – مكتبة الآداب – الطبعة الأولى 1429هـ - 2008م .

4- غاية تشكيل المقطع أربع وحدات صوتية (بحسبان الحركة الطويلة وحدة صوتية[1]) ".

ومن هنا فالمقطع الصوتي في العربية لا يخرج عن إحدى هذه الأشكال الستة الآتية ، والتي أرمز فيها للصوت الصامت بـ (ص) ، والحركة القصيرة (ح) ، والحركة الطويلة (ح ح) ، والصامتين (ص ص).

الشكل الأول :رمزه (ص ح) : وهو عبارة عن صوت صامت مع حركة قصيرة . ومثاله المقاطع الثلاثة في الفعل (ضرب) .

الشكل الثاني :رمزه (ص ح ح) : وهو عبارة عن صوت صامت مع حركة طويلة .ومثاله المقطع (ضا) في (ضارب) .

الشكل الثالث :رمزه (ص ح ص) : وهو عبارة عن صوت صامت مع حركة قصيرة وصامت . ومثاله المقطع (يَضْ) في (يَضْرب) .

الشكل الرابع: رمزه (ص ح ح ص) : وهو عبارة عن صوت صامت مع حركة طويلة وصامت .ومثاله المقطع (قيم) في (المستقيم) في حالة الوقف.

الشكل الخامس : رمزه (ص ح ص ص) : وهو عبارة عن تتابع صوت مع حركة قصيرة وصامتين . ومثاله المقطع (فَرّ) في (المفرّ) في حالة الوقف.

الشكل السادس: رمزه (ص ح ح ص ص) : وهو صوت صامت مع حركة طويلة وصامتين ومثاله (جانّ) في حالة الوقف.

والملاحظ في الأشكال الستة السابقة أن الشكل الأول والثاني منها ينتهي بالحركة القصيرة والطويلة فيعني ذلك حرية مرور الهواء معهما ، ثم تأتي بعد ذلك بقية الأشكال التي تنتهي بالصوامت فيغلق معها مجري الهواء .

ومن هنا قرَّر علماء العربية أن المقطع الصوتي في العربية لا يخرج عن هذين المصطلحين:

1- المقطع المفتوح أو المتحرك :وهو المقطع الذي ينتهي بحركة قصيرة أو طويلة .

2- المقطع المغلق أو الساكن :وهو المقطع الذي ينتهي بالصوامت ، سواء أكان صامتًا واحدًا أم صامتين .

ومن جانب آخر فالأشكال الستة تختلف من ناحية العدد ، فبعضها أطول من بعض، حيث

---

[1] علم الأصوات ص509 ،510 .

يأتي الشكل الأول من خلال عنوان (المقطع القصير) ، في حين يأتي الشكل الثاني والثالث عنوانًا لـ (المقطع المتوسط)، وأخيرًا يأتي الشكل الرابع والخامس والسادس كعناوين لـ(المقطع الطويل[1]).

إذًا ومن خلال هذه الأشكال الستة التي تجمع بين الصوامت والحركات تمَّ تشكيل الكلمة العربية ، حيث ظهرت هذه الأشكال والصور في لوحة فنية بديعة أحكمت ألوانها وتناسقت فكانت منها الكلمات بعد ذلك والجمل .

ومن الممكن تفريع الالتقاءات الصوتية بين الصوامت والحركات إلى أشكال أخري كثيرة تنتج عنها صورة لنسيج مقطعي آخر ، ولكنها ليست في حدود أو عالم العربية ، حيث ذكر الدكتور/إبراهيم أنيس : " ورغم أن أنواع النسج الممكن تكونها من الأصوات الثلاثة "الصوت الساكن وصوت اللين القصير وصوت اللين الطويل " كثيرة جدًّ ، فإن كل ماعدا الأنواع السابقة لا يعد نسجًا عربيًّا لمقاطع اللغة العربية ، وتقتصر اللغات البشرية عادة على بعض أنواع النسيج الممكن تكوينها من الأصوات الثلاثة[2] ".

رابعًا- أشكال ورموز المقطع الصوتي في سورة الزخرف :

بعد التحليل المقطعي لكل آية على حدة في سورة الزخرف من خلال الوقف عليها بالسكون تبيَّن للباحث عدة حقائق تجدر الإشارة إليها فيما يأتي:

1- ظهرت الأشكال الأربعة الأولى للمقطع الصوتي في هذه السورة بشكل ملحوظ ، وإن كان الشكل الرابع لم ترسم حدوده فيها إلا في حالة الوقف على أواخر الآيات ؛ وذلك لأنه من المقاطع الطويلة التي تشيع غالبًا في نهاية الكلمات لأنه مرتبط بحالة الوقف غالبًا دون الوصل[3] , في حين تلاشت تمامًا صورة الشكل الخامس والسادس ، وذلك لندرتهما في العربية ، ولذلك لم يجمع بين صامتين في هذه السورة .

وهذه هي الصورة الشائعة في اللغة العربية عامة ،" فالصور الثلاث الأولي أكثرها ورودًا في

---

(1) ذكر د.كمال بشر هذه المقاطع الستة تحت عناوين :(المقطع القصير و المتوسط و الطويل)،في حين اقتصر د إبراهيم أنيس ، ود. رمضان عبد التواب على صورة الأشكال الخمسة الأولى فقط ، وأما د. تمام حسان فقد ذكر ستة أشكال ، ولكنه أهمل الشكل السادس من هذه المقاطع وذكر مقطعاً آخر بدلاً منه يبدأ بالسكون .ينظر :علم الأصوات ص510، 511 , والأصوات اللغوية ص 153 , والمدخل إلى علم اللغة ص 101 , 102 , والتطور اللغوي ص 95 , واللغة العربية معناها ومبناها ص 69 .

(2) الأصوات اللغوية ص 153 .

(3) إذا كان التحليل على مستوي الكلمة وفي حالة الوقف عليها بالسكون فكلمة (مهين) هي التي تمثل الشكل الرابع فقط في سورة الزخرف .

العربية تليها الصورة الرابعة ، أما الصورتان "الخامسة والسادسة " فهما نادرتان ،ولا تردان إلا في حالة الوقف غالبًا بالنسبة للصورة الخامسة ، ودائمًا بالنسبة للصورة السادسة[1] ".

ومن أمثلة الشكل الثاني في سورة الزخرف المقطع (كا) في (كافرين) ، ومن أمثلة الأشكال الثلاثة الأخرى (منتقمون) ، وصورتها المقطعية (ص ح ص + ص ح + ص ح + ص ح ح ص) .

2- عن طريق بعض القراءات القرآنية – الصحيحة والشاذة ،المنسوبة وغير المنسوبة – تمَّ تحويل مقطعين من النوع الأول المفتوح ورمزه (ص ح) إلى مقطع واحد من الشكل الثالث ورمزه (ص ح ص) دون حدوث أثر لاختلاف الدلالة .وهذا يعني أن حرية الهواء التي ظهرت مع الصورة الأولي قد تلاشت مع تشكيل الصورة الثانية وذلك على سبيل التخفيف.

وقد تحقَّق هذا التحويل في سبع قراءات ، تأتي القراءة الأولى منها لحذف صوت الكسر ،ثم بقية القراءات لحذف الضم ، وفيما يأتي عرض لها.

القراءة الأولى : قرىء (عَقْبه) – بفتح أوله وسكون ثانيه – في قوله تعالى : (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (28)[2].

القراءة الثانية :قرأ أبو جعفر وأبو عمرو والكسائي وقالون عن نافع بإسكان الهاء حيث وقع في (هو) إذا كان قبل الهاء واو أوفاء أو لام أو ثم , غير أنَّ أبا عمرو ضم الهاء في "ثم هو " كالباقين[3].

وقد تحققت صورة هذه القراءة في سورة الزخرف في ثلاثة مواضع فقط ، ومن خلال صورة واحدة فقط وهي التقاء الواو مع (هو) فقط ، وذلك في قوله تعالى : (أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) (18) وقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) (84) .

القراءة الثالثة :قرئ (رَجْل) – بفتح فسكون – في قوله تعالى :(وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ على رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (31)[4].

---

(1) علم الصوتيات د.عبد الله ربيع ، د.عبد العزيز علام ص 250 – المكتبة التوفيقية .

(2) ينظر : الكشاف 3/ 94 ،والبحر المحيط 8/ 12 ، وروح المعاني 25/ 77 .

(3) ينظر : السبعة ص151 ، والتيسير ص 72 ، والكنز في القراءات العشر لابن عبد المؤمن الواسطي . تحقيق . د. خالد أحمد المشهداني 2/ 406 – مكتبة الثقافة الدينية – الطبعة الأولي ، والنشر 2/ 239 .

(4) ينظر:الكشاف 3/ 95، والجامع لأحكام القرآن 16/ 83 ، والبحر المحيط 8/ 3، وروح المعاني 25/ 87 .

القراءة الرابعة :قرأ أبو رجاء ومجاهد "سُقْفًا" – بضم فسكون – في قوله تعالى :(وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) (33)[1].

القراءة الخامسة : قرأ أبوعمرو (رسلنا) – بإسكان السين – وهو المشهور عنه ، ووافقه اليزيدي والحسن في قوله تعالى : (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا)(45) ، وقوله تعالى : (بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (80)[2].

القراءة السادسة : قرأ أبو رجاء ومجاهد (سُلْفا) – بضم السين وسكون اللام – في قوله تعالى : (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلْآخِرِينَ) (56)[3].

القراءة السابعة : قرأ الجهور (جزءًا) –بسكون الزاي وأبو بكرعن عاصم بضم الزاي والهمز – في قوله تعالى :(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا)(15)[4].

ومن هنا وعن طريق هذه القراءات السبع تمَّ اختزال المقطعين في مقطع واحد ، رغبة في الميل إلى المقاطع المغلقة وفرارًا من توالي المقاطع القصيرة المفتوحة لهدف التخفيف ، حيث السرعة في الآداء والاقتصاد في الجهد العضلي ، وهو ما يناسب القبائل البدوية خاصة قبيلة بكر بن وائل وتميم وأسد وتغلب وقيس ونجد[5].

وقد أشار النحاة من القدماء إلى ميل اللغة العربية إلى المقاطع الساكنة ، حين قرروا استحالة اجتماع أربعة متحركات في الكلمة الواحدة ، وكراهته ، فيما هو كالكلمة . ومعني قولهم هذا كما يعبر

---

(1) ينظر : الكشاف 3/ 96 ، والبحر المحيط 8/ 15 ، وروح المعاني 25 / 79 .

(2) ينظر : السبعة ص 195 ، والكشف 1/ 408 ، والتيسير ص 85 ، والكنز 2/ 459 ، والنشر 246/2 ، وإتحاف فضلاء البشر ص 496.

(3) ينظر : إعراب القراءات الشواذ 2/ 451 .

(4) ينظر : السبعة ص 158 ، والتيسير ص 82 ، والكنز 429/2 ، والنشر 2/ 216 .

(5)ينظر : الكتاب .سيبويه . تحقيق .عبد السلام محمد هارون 113/4 – دار الجيل – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي 1411هـ – 1991م ، ومعاني القرآن للفراء 74/5 ، والسبعة ص 622 ، والمخصص 220/1، والمحتسب 1/ 311 , 367 ، وحجة القراءات ص 101 ، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل . تحقيق .عادل أحمد عبد الموجود و آخرين 266/2، 4/ 306 – منشورات محمد على بيضون – دار الكتب العملية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي 1419هـ – 1998 م ، وإتحاف فضلاء البشر ص185.

عنه المحدثون أن اللسان العربي ينفر من توالي أربعة مقاطع متحركة فيما هو كالكلمة ؛ ولكنهم أباحوا توالي أربعة مقاطع ساكنة فيما هو كالكلمة إذ نقول "استفهمتم[1]".

3- تعددت صور وأشكال المقطع الصوتي داخل حدود الكلمة القرآنية في سورة الزخرف ، وذلك بين صورة المقاطع الأحادية والثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية ، وإن كان الغالب في الأشكال الثلاثة الأخيرة الإتيان من خلال اللواحق والسوابق التي تتصل بالكلمة القرآنية في هذه السورة .

فمن أمثلة المقاطع الأحادية :واو العطف – في – قُلْ- كَمْ – مِنْ – أمْ – قَدْ .

فأمثلة المقاطع الأحادية قد تأتي على صورة الشكل الأول ورمزه (ص ح) ، أو صورة الشكل الثاني ورمزه (ص ح ح) ، أو صورة الشكل الثالث ورمزه (ص ح ص) .

ومن أمثلة المقاطع الثنائية : إلى – فيها – موسي – عيسي – هذا – قال – جزءا – عنهم – أنَّا – ربّ – مُلْك .

وصورة المقاطع الثنائية قد تأتي على صورة (ص ح + ص ح ح) ، أو(ص ح ح + ص ح ص)، أو (ص ح ص +ص ح ح) ، أو(ص ح ص +ص ح).

ومن أمثلة المقاطع الثلاثية : خلق – جعل – ضرب – كافرون – نزّل – شيطانًا – أكبر – كشفنا .

فأمثلة المقاطع الثلاثية قد تأتي على صورة (ص ح + ص ح + ص ح) , أو (ص ح ح + ص ح + ص ح ح ص) , أو (ص ح ص + ص ح +ص ح) , أو (ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح ص) , أو (ص ح + ص ح ص + ص ح ح) .

ومن أمثلة المقاطع الرباعية :ظهوره – عباده – عاقبة – باقية – منقلبون – مقترنين.

فأمثلة المقاطع الرباعية قد تأتي على صورة (ص ح + ص ح ح + ص ح + ص ح) ، أو (ص ح ح + ص ح +ص ح+ ص ح ص) ،أو (ص ح ص + ص ح + ص ح + ص ح ح ص) .

ومن أمثلة المقاطع الخماسية:شهادتهمْ – لبيوتهمْ – ينفعكمْ – مقتدرونَ .

فأمثلة المقاطع الخماسية قد تأتي على صورة (ص ح + ص ح ح + ص ح – ص ح + ص ح ص

(1) الأصوات اللغوية ص 153 .

) أو (ص ح + ص ح + ص ح ح +ص ح + ص ح ص)،أو (ص ح ص + ص ح + ص ح +ص ح +ص ح) ،أو (ص ح ص +ص ح +ص ح + ص ح ح + ص ح).

ومن أمثلة المقاطع السداسية : (ليصدونهم) ، وصورتها المقطعية هي : (ص ح + ص ح + ص ح ص +ص ح ح + ص ح + ص ح ص) .

فهذا التركيب المقطعي هو صورة واقعية لنسيج الكلمة القرآنية في هذه السورة والتي لا أثر فيها لصورة الكلمات ذات المقاطع السباعية .

وقد ذكر الدكتور / إبراهيم أنيس أن " الكلمة العربية مهما اتصل بها من لواحق أو سوابق لا تزيد عدد مقاطعها على سبعة . ففي كل من المثالين " فسيكفيكهمو" ، أو " أنلزمكموها " مجموعة مكونة من سبعة مقاطع .علي أن هذا النوع نادر في اللغة العربية ، وإنما الكثرة لا تكاد تزيد على أربعة مقاطع ... فالكلمة المشتقة في اللغة العربية اسمًا كانت أو فعلا ، حين تكون مجردة من اللواحق و السوابق (كالضمائر وأل المعرفة) لا تكاد تزيد على أربعة مقاطع ، ويندر أن نجدها تتكون من خمسة مقاطع مثل " يتسلَّم" ، "يتسابق " فنسج الكلمة الأولى من هذين المثالين هو : مقطعان من النوع الأول + مقطع من النوع الثالث + مقطعان من النوع الأول . أما نسيج الكلمة الثانية فهو : مقطعان من النوع الأول + مقطع من النوع الثاني + مقطعان من النوع الأول ، وكذلك الأسماء المشتقة من هذين الفعلين قد تتكون من خمسة مقاطع مثل " متعلم " و" متسابق " ، ولكن لندرة هذا النوع من الكلمات سنفرض هنا أن كلمات العربية لا تزيد على أربعة مقاطع[1] ".

4- تنوَّعت صورة المقاطع الصوتية في أجزاء الكلمة الأخيرة التي تنتهي بها الآيات في السورة ، حيث ظهرت هذه الصورة المقطعية الثلاثية في غالب الأحيان وهي : (ص ح ص+ ص ح + ص ح ح ص) ؛ وذلك مثل : (تعقلون) ، (مسرفين)،(تهتدون) ، (تخرجون) ، (تركبون) ، يليها صورة المقطعين (ص ح + ص ح ح ص) في كلمات مثل (حكيم) ، (عليم) ، (مبين) ، (كظيم) ، (عظيم) .

وفي بعض الأحيان ظهرت هذه الصورة المقطعية وهى (ص ح ح + ص ح ح ص) في كلمات مثل (كافرون) ، (فاسقين) ، (ظالمين) ، (ماكثون) ، (عابدين) ، وكذلك وردت صورة

(1) السابق ص 152 .

المقاطع الرباعية بهذه الصورة في كلمات معدودة هي (ص ح ص + ص ح + ص ح + ص ح ح ص) ، وذلك في كلمات مثل :(مشتركون) ، (مقتدون) ، (منتقمون) ، (مقترنين) .

وهناك صور أخرى ولكنها نادرة الوقوع في السورة ، فربما تقتصر كل صورة على كلمة واحدة فقط ، فهي حالات فردية .

5- قد تشتمل الكلمة القرآنية في سورة الزخرف في النادر على أربعة مقاطع من الشكل الأول ورمزه (ص ح) ولكن مع اللواحق ، وذلك مثل (عقبه) و (ملئه) ، وتقطيعهما (ص ح + ص ح + ص ح + ص ح) ، ولكن الغالب أن الكلمة القرآنية في السورة لا تشتمل على أكثر من ثلاثة مقاطع من هذا الشكل ، بل يأتي المقطع الساكن لإزالة مقطع رابع من الشكل الأول عن طريق السوابق واللواحق ، ومثال ذلك : (كلمة) ، (بقدر) وصورتهما المقطعية وهي: (ص ح + ص ح + ص ح + ص ح ص) .

وقد يأتي المقطع المتحرك بحركة طويلة لإزالة هذا التتابع كما في (جعلها) ، و (أشهدوا) ، و (فطرني) ،فالصورة المقطعية هي:(ص ح + ص ح +ص ح + ص ح ح).

وقد ذكر الدكتور /إبراهيم أنيس أن "اللغة العربية تميل عادة في مقاطعها إلى المقاطع الساكنة وهي التي تنتهي بصوت ساكن ، ويقل فيها توالي المقاطع المتحركة ، خصوصًا حين تشتمل على أصوات لين قصيرة[1] ".

وذكر أيضًا أن " توالى المقطع من النوع الأول أو من النوع الثالث جائز مستساغ في الكلام العربي ، وإن كانت اللغة العربية في تطورها تميل إلى التخلص من توالي النوع الأول ، أما توالي النوع الثالث هو مقيد غير مألوف في الكلام العربي ، ولا يسمح الكلام العربي بتوالي أكثر من اثنين من هذا النوع[2] ".

6- قد يتم تحويل الكلمات في صورتها المتصلة من المقاطع الخماسية إلى المقاطع الرباعية عن طريق الإدغام الكبير في كلمتين ، وذلك كما في قراءة أبي عمرو ويعقوب بإدغام اللام في اللام في (جعل لكم) في قوله تعالى : (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا

(1) السابق الصفحة نفسها .

(2) السابق ص 155 .

سُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (10) ، وقوله تعالى : (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) (12) ، وإدغام الميم في الميم كما في (الأنعام ما) في قوله تعالى : (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) (12) وقوله تعالى : (وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) (57) .

"واللغة العربية حين النطق بها تتميز فيها مجاميع من المقاطع ، تتكون كل مجموعة من عدة مقاطع وينضم بعضها إلى بعض ، وينسجم بعضها مع بعض فهي وثيقة الاتصال ، و بذلك ينقسم الكلام العربي إلى تلك المجاميع من المقاطع ، وكل مجموعة اصطلح عادة على تسميتها بكلمة . فالكلمة ليست في الحقيقة إلا جزءًا من الكلام ، تتكون عادة من مقطع ، أو عدة مقاطع وثيقة الاتصال بعضها ببعض ، ولا تكاد تنفصم في أعضاء النطق ، بل تظل مميزة واضحة في السمع ، ويساعد بلا شك على تمييز تلك المجاميع معانيها المستقلة في كل لغة ، غير أن بعض القراءات القرآنية أباحت ما سمى بالإدغام الكبير في كلمتين ... وفي مثل هذه الحالة لا يسهل التمييز بين حدود الكلمتين إلا بمراعاة المعنى ، إذ في بعض الأحيان تكون الكلمتان مجموعة واحدة من المقاطع ، أو تكونان مجموعتين لا تنطبقان على مقاطع الكلمتين حيث نقرؤهما بغير الإدغام ، فطورًا نجد المقطع الأخير من الكلمة الأولى أو جزءًا منه ينضم إلى مقاطع الكلمة الثانية ، وطورًا آخر نجد المقطع الأول من الكلمة الثانية ، أو جزءًا منه ، ينضم إلى مقاطع الكلمة الأولى[1] ... ".

7- تأتى الآيات في سورة الزخرف وهي تجمع تارة بين عدد محدود من المقاطع ، وتارة أخرى بين مجموعة كبيرة من المقاطع ، حيث ظهرت الصورة الأولى في آية مثل (حاميم) (1) ، وصورتها المقطعية (ص ح ح + ص ح ح ص) ، (و الكتاب المبين) (2) ، وصورتها المقطعية (ص ح ص + ص ح + ص ح ح + ص ح ص + ص ح + ص ح ح ص) ، ثم تظهر الصورة الثانية في آية مثل قوله تعالى : (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (32) . وصورتها المقطعية :(ص ح + ص ح ص +ص ح ص+ ص ح + ص ح ح + ص ح + ص ح ص + ص ح + ص ح + ص ح ص +ص ح +

[1] السابق ص 152 .

ص ح + ص ح ص + ص ح + ص ح + ص ح ص + ص ح ح + ص ح ص + ص ح + ص ح ص + ص ح + ص ح + ص ح ح + ص ح + ص ح + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص + ص ح + ص ح ح + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص+ ص ح ح+ ص ح + ص ح + ص ح ص + ص ح ح +ص ح ص + ص ح + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص + ص ح + ص ح ص + ص ح ص + ص ح + ص ح + ص ح ح + ص ح ص + ص ح + ص ح ص + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح ص + ص ح + ص ح + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص + ص ح + ص ح + ص ح ص + ص ح + ص ح ص + ص ح + ص ح + ص ح ص+ ص ح + ص ح + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص+ ص ح ح+ ص ح ص + ص ح + ص ح ح ص) .

8-الأشكال الثلاثة الأولى من أشكال ورموز المقطع الصوتي هي التي تسيطر على أجزاء سورة الزخرف في داخل الآيات ، فقد تقع هذه الأشكال أولا ، وقد تقع وسطًا وآخرًا ، ولكن من خلال صور مختلفة ، وذلك مثل : (جعلناه) وصورتها المقطعية :(ص ح + ص ح ص + ص ح ح + ص ح)، و (عربيًّا) وصورتها المقطعية: (ص ح +ص ح + ص ح ص + ص ح ص) ، و (أرسلنا) وصورتها المقطعية :(ص ح ص + ص ح ص + ص ح ح) ، و (عباده) وصورتها المقطعية : (ص ح + ص ح ح + ص ح + ص ح) ، و (يخلق) وصورتها المقطعية :(ص ح ص +ص ح + ص ح) ، و (بناتٍ) وصورتها المقطعية : (ص ح + ص ح ح + ص ح ص) ، وذلك بخلاف الأشكال الأخرى فهي محدودة الاستعمال كما ذكر الدكتور/إبراهيم أنيس: " والنوع الرابع والخامس من المقاطع في اللغة العربية محدودة الاستعمال لا نراه إلا متطرفًا ، وفي بعض حالات الوقف ، أما الأنواع الثلاثة الأولى فهي التي يتكون منها نسيج الكلمة العربية في الكلام المتصل ، وقد تقع تلك الأنواع الثلاثة في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها ، فليس منها ما يختص بموضع ما من الكلمة ... ومن هذه الأنواع الثلاثة يمكن أن تكون أشكالا مختلفة لنسج الكلمة العربية ، مراعين أن بعض الكلمات لا يشتمل على ثلاثة مقاطع ، والبعض الآخر يشتمل على أربعة[1] ... ".

---

(1) السابق ص 156.

خامسًا - الأثر الدلالي للمقطع الصوتي في سورة الزخرف:

إذا أردنا أن نلتمس الأثر الدلالي للمقطع الصوتي في سورة الزخرف فيمكن استنتاجه من خلال عرض النتائج الآتية :

1- ظهر الشكل الرابع من أشكال المقطع الصوتي ورمزه (ص ح ح ص) في نهاية جميع الآيات التسعة والثمانين في حالة الوقف ؛ وذلك لعرض مجموعة من المشاهد والحقائق ، و التي انعكس آثارها إيجابًا وسلبًا على بني الإنسان تعريضًا بكفار مكة وتصريحًا بنصرة الرسول - صلى الله عليه وسلم- عليهم ، وذلك " إظهارًا لوحدة الهدف والدعوة ، بين الأنبياء والمرسلين ، وأن رسالة جميع الرسل ، كانت تحمل راية الإيمان ، ودعوة التوحيد[1] ".

وفيما يلي عرض لهذه المشاهد :

المشهد الأول : (حال الأنبياء والمرسلين)

عرضت سورة الزخرف لحالة مجموعة من الأنبياء والرسل مع قومهم ، وهم إبراهيم و موسى وعيسى - عليهم الصلاة والسلام – زجرًا لكفار مكة في صدَّهم عن سبيل الله عزَّ وجلَّ ، فهذا :

1- خليل الرحمن – إبراهيم عليه السلام - الذي يزعم العرب أنهم على ملَّته ودينه ، ثم يعبدون الأوثان والأحجار ، وهو أول من حطَّم الأوثان ، ودعا إلى عبادة الواحد الدَّيان ، فيقول قدَّست أسماؤه : قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)(26 -27 – 28) .

2- موسى - كليم الله عليه السلام - ولمَّا طغت قريش في أمر نبَّوة محمد – صلى الله عليه وسلم - ، بسبب أنه فقير عديم المال ، وإنه ليس رئيس قبيلة أو عشيرة ، واختاروا أن ينزَّل القرآن على رجل غنيٍّ ، كثير المال ،عظيم الجاه ، ذكر تعالى قصة موسي –عليه السلام – مع فرعون الطاغية الجبار ، ليشير إلى أن منطق العناد والطغيان واحد ، فقد سبقهم فرعون إلى التكبر والاستعلاء ، بسلطانه ، وماله ، ورفض قبول دعوة الحق ،

---

(2) قبس من نور القرآن الكريم (سورة الشورى : ق) دراسة تحليلية موسعة لأهداف ومقاصد السور القرآنية . محمد علي الصابوني ص 48 – دار القلم – دمشق – الطبعة الأولى 1414هـ - 1994م.

بحجة أن موسى فقير ، وأن فرعون أوسع منه مُلْكًا ، وأكثر منه مالا ، وفي ذلك يقول تقدَّست أسماؤه : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ. وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .....) (إلى آخر الآيات من الآية 46 : 52) .

3- عيسى – عليه السلام – ثم ينتقل السياق من قصة موسى بن عمران ، إلى حلقة من قصة عيسى بن مريم ، بمناسبة جدل المشركين لرسول الله ، – عليهم من الله ، جميعًا أفضل الصلاة والتسليم – ، فقد أثار المشركون شبهة عبادة النصارى للمسيح بن مريم ، وعبادة اليهود لعزير ،والمشركين للملائكة ، وقالوا : إذا كان كل من عبد من دون الله معذبًا في نار جهنم ، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا -الأصنام – معهم في جهنم ، وحول هذا الموضوع تتحدث الآيات الكريمة : (وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ. وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ، إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلا لِبَنِي إِسْرائيلَ (57- 58 – 59).

المشهد الثاني : حال المؤمنين والكافرين :

تعرض السورة أولا لحال المؤمنين الصالحين الذين عرفوا طريق الله في الدنيا فعرفهم الله طريق جنته في الآخرة ، بينهما تعرض ثانيًا لحال المجرمين الذين صدوا عن طريق الله فأضلهم الله عن جنته يوم القيامة ،إذًا فهي في مقام العرض الذي يتضمن الوعد والجنة للفريق الأول بينما تتضمن الوعيد والنار للفريق الثاني ، فهي إذًا تحمل البشرى لما هو آت يوم القيامة عند الفريق الأول ، وتحمل الوعيد لما هو أتٍ يوم القيامة للفريق الثاني , فالتنبيه والتذكير إذًا بيوم القيامة اقتضى استعمال هذه المقاطع الممدودة الطويلة ، فهي تعرض لحال الإخلاء والأشرار ، ثم لحال المؤمنين الأخيار ، فبينما الأخلاء والأشرار يتلاحَوْن ويختصون ، نجد المؤمنين الأبرار يتنعَّمون و يتلذَّذون ، ويأتيهم نداء علوي من رب الأرباب ، بالتبشير بدخول الجنان آمنين مطمئنين ، لا يشعرون بفزع ولا هلع ، يطوف عليهم غلمان الجنة، بأوان وكؤوس من الذهب ،فيها أطايب الطعام والشراب ، مع دوام السرور والحبور ، في دار الخلد والنعيم ، وفوق لذة الجسد ، لذة الاستمتاع بالأنهار الجارية ، والقصور العالية ،التي لبناتها من الذهب والفضة ، ثم لهم فيها من كل ما اشتهت نفوسهم ، من

النساء ، والمتاع ، والرياش مع دوام هذا النعيم ، أما النداء فهو تكريم لهم من العليِّ الكريم ، لذا قال سبحانه :(يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ. ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) (70 : 73) ... لقد تركنا المؤمنين في جنات النعيم يسرحون ويمرحون ، ويتنعَّمون بلذائذ المتع الجسدية والروحية ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ونأتي الآن لنري أحوال الأشقياء الفجار ، وهم في أطباق الجحيم يتعذَّبون ، ويستغيثون ويستجيرون فلا يجابون ، إنهم في عذاب دائم ، لا يفتر عنهم لحظة ، ولا يبرُد هنيهة ، ولا تلوح لهم بارقة من أمل في الخلاص ، وينادون "مالكًا" خازن جنهم ، ليطلب لهم من الله أن يميتهم ، حتى يستريحوا من ذلك العذاب ، فيأتيهم الجواب باليأس والقنوط ، ولنستمع إلى الآيات البينات عن مصيرهم: (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ.لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) (74 . 75).

المشهد الثالث : نعيم الدنيا والآخرة

وضحت السورة أيضًا صورة النعيم الذي يمكن أن يلحق بصاحبه في الدنيا ، والذي لا يخطر على قلب بشر بحال النعيم في الآخرة ، فلا وجه للمقارنة بينهما ، حيث بَيَّن تعالى حقارة الدنيا ، ودناءة قدرها عند الله ، فقال عزَّ شأنه : (وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ. وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) (33: 35) ... والمعنى : لولا أن يفتتن الناس ويصبحوا كفارًا ، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار ، فجعلنا لهم القصور العالية ، سقفُها من فضة ، وسلالمها ومصاعدها من فضة كذلك ، يرتقون بها إلى تلك القصور ، وجعلنا لهم أيضًا السرر الوثيرة من الذهب يضطجعون عليها ويتكئون ، والأبواب المزينة بالذهب ، وليس كل ذلك النعيم الذي نعطيه للكفار ، إلا شيء حقير زائل بالنسبة للآخرة ، وما أعدَّه الله لعباده المؤمنين المتقين في الآخرة خاصٌّ بهم لا يشاركهم فيه أحد، وهو خير من كل ما في هذه الدنيا من متاع، " الغرض التحذير من الاغترار بالدنيا " و الآيات سيقت لبيان حقارة الدنيا وهوانها على الله فلولا خوف الفتنة على المؤمنين ، لخَصَّ الله بها الكافرين ، فجعل قصورهم ، وبيوتهم من الذهب والفضة بدل الحجارة ، وجعل لهم المصاعد يصعدون بها إلى تلك القصور من الذهب أيضًا ، والسرر من الذهب يتمتعون بها ويجلسون عليها ، والسقف و الأبواب من الذهب ، وهي مزخرفة بأنواع الزينة والجمال

، وكل هذا النعيم حقير وصغير ، بحيث يبذل رخيصًا لمن يكفر بالرحمن ، ولكن الله سبحانه يعلم أن الناس سيُفتنون ، إذا رأوا الكافر سيتمتع بالدنيا بجميع فنون الملاذ , والمؤمن محروم من هذا النعيم ، فلذلك أغنى بعض الكفار ، وأفقر بعضهم ، وأغنى بعض المؤمنين و أفقر بعضهم ، رحمة منه بالبشر ، لئلا يفتنوا بما يُعطاه الفجار من نعيم هذه الحياة ، وفي الحديث الصحيح : لو كانت الدنيا تعدُل – أي تُساوي – عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافرًا منها جرعة ماء[1].

المشهد الرابع : تصحيح الانحرافات الاعتقادية

" في هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية ، وردّ النفوس إلى الفطرة وإلى الحقائق الأولى : وكانت الوثنية الجاهلية تقول : إن الملائكة بنات الله ؛ ومع أنهم يكرهون مولد البنات لهم ، فإنهم كانوا يختارون لله البنات ! ويعبدونهم من دونه ، ويقولون : إننا نعبدهم بمشيئة الله ولو شاء ما عبدناهم ! وكانوا مجرد أسطورة ناشئة من إنحراف العقيدة . وفي هذه السورة يواجههم بمنطقهم هم ؛ ويحاجهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح ، حول هذه الأسطورة التي لا تستند إلى شيء على الإطلاق : " وجعلوا له من عبادة جزءًا إن الإنسان لكفور مبين الخ الآيات[2] ".

" وفي هذه السورة يكشف عن التوائهم في هذا الجدل ، ويبرئ - عيسى عليه السلام – مما ارتكبه أتباعه من بعده وهو منه برىء ... وقد كانوا يزعمون أنهم على ملة أبيهم إبراهيم ، وأنهم بذلك أهدى من أهل الكتاب وأفضل عقيدة ، وهم في هذه الجاهلية الوثنية يخبطون ، فبين لهم في هذه السورة حقيقة ملة إبراهيم ، و أنها ملة التوحيد الخالص ، وأن كلمة التوحيد باقية في عقبة ، وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد جاءهم بها ، ولكنهم استقبلوها واستقبلوه بغير ما ينبغي من ذرية إبراهيم ... ولم يدركوا حكمه اختيار الله –سبحانه- لرسوله – صلى الله عليه وسلم- ووقفت في وجوههم القيم الأرضية الزائفة الزهيدة التي اعتادوا أن يقيسوا بها الرجال ، وفي هذه السورة يحكي تصوراتهم وأقوالهم في هذا الصدد ؛ ويرد عليهم ببيان القيم الحقيقية ، وزهادة القيم التي يعتبرونها هم ويرفعونها ... ثم جاء بحلقة من قصة موسى –عليه السلام- مع فرعون ، يبدو فيها

---

(1) ينظر هذه المشاهد في قبس من نور القرآن الكريم ص 48 ، 52 ، 57 ، 61 ، 62 ، 67 ، 68 .

(2) في ظلال القرآن . سيد قطب 3174/5 ، 3175 – الطبعة الشرعية الخامسة والعشرون 1417 هـ - 1996م.

اغترار فرعون بمثل تلك القيم الزائفة وهوانها على الله ، وهوان فرعون التي اغترَّ بها ، ونهايته التي تنتظر المغترين بمثل ما اغتر به[1] ".

2- من خلال عملية تحويل المقاطع ظهرت بعض القراءات القرآنية ، حيث تمَّ تحويل الشكل الأول من أشكال المقطع الصوتي ورمزه (ص ح) إلى صورة الشكل الثاني ورمزه (ص ح ح) ، وذلك لكي يصبح الهواء الخارج من الرئتين أثناء عملية النطق أكثر حرية و انطلاقًا ، وذلك من أجل المبالغة في الدلالة .

وقد عرفت هذه القراءات عند علمائها بالإشباع ، وكذلك بإثبات ياءات الزوائد ، وفيما يلي عرض القراءات الخاصة بكل منهما .

الصورة الأولى : الإشباع

وردت في سورة الزخرف قراءات خاصة بظاهرة الإشباع ، خمس منها لابن كثير ، وهي : (جعلنا هو) يوصل الهاء بواو في الوصل – في قوله تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (3) ، و(لأبيهي) في قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ) (26) ، و (ضربوه) في قوله تعالى : (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)(58) ، و (عليهي) في قوله تعالى : (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلا لِبَنِي إِسْرائِيلَ) (59) ، و(إليهي) في قوله تعالى : (وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (85) .

وأما القراءة السادسة فهي لزيد بن على (يعشو) – بوصل الشين بواو في قوله تعالى : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)(36)[2].

الصورة الثانية : إثبات ياءات الزوائد

وردت في سورة الزخرف ثلاثة مواضع بإثبات ياءات الزوائد ، حيث أثبتها في الحالين يعقوب في المواضع الثلاث ، وهي : (سيهدين) في قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) (27) ، و(اتبعون) في قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (61) ، و(أطيعون) في قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ

---

(1) السابق 5/ 3175 .

(2) ينظر هذه القراءات في : إعراب القراءات الشواذ 2/466 ، والنشر 1/ 304، 305، وإتحاف فضلاء البشر ص 34 ، والبحر المحيط 8/ 16 ، والدر المصون 6/ 89 .

الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) (63) ، وفي الموضع الثالث أثبتها وصلا أبو جعفر و أبو عمرو[1] .

ومن خلال هذه القراءات أصبحت تلك المقاطع أكثر حرية وانطلاقًا في مجرى الهواء ؛ وذلك لإطالة زمن النطق بها ، وذلك عن طريق تحويل المقطع القصير المتمثل في الحركات القصيرة إلى المقطع المتوسط المفتوح.

3- قد يتمُّ تحويل المقطعين إلى مقطع واحد ، وذلك كما حدث في صورة الانتقال من صورة الماضي إلى صورة الأمر كما في قراءة السبعة عدا ابن عامر (قل) – بغير ألف- في قوله تعالى :(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) (24)[2] .

4- عن طريق بعض القراءات القرآنية ظهرت زيادة المقاطع والتي انعكس أثرها على الدلالة ، ومن ذلك: قراءة الجماعة : (ويُسْألون) مبنيًّا للمفعول من (سُئل)الثلاثي ؛ وقرئ (يُسَاءَلون) – بألف بعد السين مبنيًّا للمفعول من المساءلة في قوله تعالى : (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلونَ)(19) [3] .

وقد تمَّ من خلال هذه القراءة تحويل صورة (يسئلون) المقطعية , فبعد أن كانت صورتها : (ص ح ص + ص ح + ص ح ح ص) أصبحت على صورة (يساءلون) وتتكون من : (ص ح+ ص ح ح + ص ح + ص ح ح ص).

و كذلك قراءة الجماعة (لَعِلْمٌ) في قوله تعالى :(وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (61) ، أي فيه عِلْم الساعة و أهوالها ، أو هو علامة على قُرْبها ...والعامة على (عِلْم) مصدرًا ،جعل عِلْمًا للمبالغة لما كان به يَحْصُل العلم ، أو لمَّا كان شرطاً يُعْلم به أطلق عليه عِلْم[4].

---

(1) ينظر : السبعة ص 590 ، والكشف 2/ 263 ، والتيسير ص 197 ، والنشر 2/ 410 ، وإتحاف فضلاء البشر ص 495 ، 497 ، والجامع لأحكام القرآن 16/ 107 ، والبحر المحيط 8/ 26 .

(2) ينظر : الكشف 2/ 258 ، والتيسير ص 196 ، والنشر 2/ 409 .

(3) روح المعاني 25 / 361 ، 362 . وينظر : الكشاف 4/ 437 .

(4) الدر المصون 5/ 603.

ف (لعلم للساعة) :أي أنه بنزوله شرط من أشرطها أو بحدوثه بغير أب أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذي هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة في الساعة ، و أيًّامًا كان فعلم الساعة مجاز كما تعلم والتعبير به للمبالغة[1] ... .

وقرأ ابن عباس و أبو هريرة وأبو مالك الغفاري وزيد بن على وقتادة ومجاهد و الضحاك ومالك بين دينار والاعمش والكلبي (لَعَلمٌ)- بفتح الفاء والعين – أي : لشَرْط وعلامة[2] .

5- كثرة المقاطع في الكلمات قد تؤدى إلى زيادة في الدلالة ، وذلك مثل (مشتركون)(39) و (منتقمون) (41) و(مقتدرون)(43) , و (مقترنين)(53) ، فالصورة المقطعية لهذه الكلمات هي صورة خماسية في حالة الوصل وهي : (ص ح ص + ص ح + ص ح ح + ص ح).

فهذه الكلمات تصوِّر الحقائق تصويرًا حيًّا كأنها الآن رأي العين ، فما توحيه كلمة (مشتركون) ، هو أن من حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركون في سببه في (الدنيا) ,وكذلك (منتقمون) لا محالة في الدنيا و الآخرة ، ثم تأتي كلمة (مقتدرون) لتعبر على أنه لا مناص لهم من تحت ملكنا و قهرنا ، وكذلك التعبير بـ (مقترنين) للتعبير عن دلالة إعانة الملائكة له ، ولذا قال ابن عباس يعينونه على من خالفه والمقصود بذلك فرعون[3] .

---

(1) روح المعاني 25 / 94 .

(2) ينظر : الدر المصون 5/ 603 ، وروح المعاني 25 / 94 .

(3) ينظر : روح المعانى 25 / 83 ، 84 ، 90 .

المبحث السادس : النبر

عندما تخرج الأصوات من جهاز النطق لآداء مهمتها الكلامية فإنها تخرج في صورة مقاطع ذات أجزاء ووحدات متتابعة ، وذلك حتى تتمكن من آداء وظيفتها ، ولكن ليست هذه الصور المتتابعة لتلك الأصوات ذات درجة واحدة في النطق , بل منها ما يخرج بدرجة أوضح وأقوى من الأخرى ، وذلك عن طريق الضغط عليها ، وتلك الدرجة هي التي تميز مقطعًا عن آخر، "والمرء حين ينطق بلغته يميل عادةً إلى الضغط على مقطع خاص من كل كلمة ، ليجعله بارزًا أوضح في السمع من غيره من مقاطع الكلمة . وهذا الضغط هو الذي نسميه بالنبر[1]".

و الحديث عن النبر وواقعة النظري و التطبيقي في العربية وسورة الزخرف يمكن أن يتم عرضه من خلال العناوين الآتية :

أولا- ضابط النبر:

ذكر علماء اللغة عدة تعريفات للنبر يجمعها الوضوح السمعي ، فمن ذلك ما ذكره الدكتور/ تمام حسان بأنه "وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا قورن ببقية الأصوات و المقاطع من الكلام[2]".

وقال عنه أيضًا " هو ازدياد وضوح جزء من أجزاء الكلام في السمع عن بقية ما حوله من أجزائها[3]".

وذكر ماريوباي أن " النبر معناه أن مقطعًا من بين مقاطع متتابعة يعطى مرتبة من الضغط أو العلو[4]".

وبنفس الدلالة ذكر الدكتور/ كمال بشر أن النبر "في الدرس الصوتي يعني نطق مقطع من مقاطع الكلمة بصورة أوضح و أجلى نسبيًّا من بقية المقاطع التي تجاوره[5]".

فالنبر إذًا يحتاج إلى نشاط أقوى من أعضاء النطق حتى نتمكَّن من التمييز بين درجة وضوح

---

(1)الأصوات اللغوية ص 159 .

(2)مناهج البحث في اللغة د . تمام حسان ص 160 . وينظر: علم اللغة د. محمود السعران ص 209 .

(3)اللغة العربية معناها ومبناها ص 170 . وينظر: دراسة الصوت اللغوى ص 187 .

(4)أسس علم اللغة ص 160 .

(5)علم الأصوات ص 512 . وينظر: الأصوات ووظائفها د . محمد منصف القماطي ص168 – دار الوليد – طرابلس – الجماهيرية العظمى 2003م .

هذه الأصوات ، حيث ذكر الدكتور/ إبراهيم أنيس أن "النبر هو نشاط في جميع أعضاء النطق في وقت واحد ، فعند النطق بمقطع منبور، نلحظ أن جميع أعضاء النطق تنشط غاية النشاط ؛ إذ تنشط عضلات الرئتين نشاطًا كبيرًا ، كما تقوى حركات الوترين الصوتيين ويقتربان أحدهما من الآخر ليسمحا بتسرب أقل مقدار من الهواء ، فتعظم لذلك سعة الذبذبات ، ويترتب عليه أن يصبح الصوت غالبًا واضحًا في السمع . هذا في حالة الأصوات المجهورة ، أما مع الأصوات المهموسة فيبتعد الوتران الصوتيان أحدهما عن الآخر أكثر من ابتعادهما مع الصوت المهموس غير المنبور ، وبذلك يتسرب مقدار أكبر من الهواء ، وكذلك يلاحظ مع الصوت المنبور نشاطًا في أعضاء النطق الأخرى ، أقصى الحنك و اللسان و الشفتين[1]".

ومن هنا فالصوت المنبور ينطق بصورة أقوى وأوضح من غيره ، حيث إن "الكلمة تتكون من سلسلة من الأصوات المترابطة المتتابعة التي يسلم بعضها إلى بعض ، ولكن هذه الأصوات تختلف فيما بينها قوة وضعفًا ، بحسب طبيعتها و مواقعها ، فالصوت أو المقطع الذي ينطق بصورة أقوى مما يجاوره يسمى صوتًا أو مقطعًا منبورًا ، ويتطلب النبر عادة بذل طاقة في النطق أكبر نسبيًّا ، كما يتطلب من أعضاء النطق مجهودًا أشد . لاحظ مثلا (ضَ/رَ/بَ) تجد أن المقطع الأول ينطق بارتكاز أكبر من زميليه في الكلمة نفسها[2]".

وقد أثبت الدرس الصوتي الحديث أن "للنبر قيم صوتية (نطقية) وأخرى فنولوجية (وظيفية). فهو من الناحية النطقية ذو أثر سمعي واضح ، يميز مقطعًا من آخر أو كلمة من كلمة أخرى . أما من الناحية الوظيفية فإن النبر يقود إلى تعرف التتابع المقطعي في الكلمات ذات الأصل الواحد ، عند تنوّع درجات نبرها ومواقعه بسبب ما يلحقها من تصريفات مختلفة . فالنبر في كتب على المقطع الأول ، ولكنه يقع على الثاني في كتبت ، وعلى الثالث في كتبته[3]".

إذًا اختلفت المصطلحات والعبارات في تعريف النبر إلا أنها تقضي في النهاية إلى نتيجة واحدة ، فـ"جميع هذه التعريفات تتفق على أن النبر يقتضي طاقة زائدة أو جهدًا عضليًّا إضافيًّا . ولهذا يقول

---

(1)الأصوات اللغوية ص 158 .

(2)علم الأصوات ص 512 ، 513 .

(3)السابق ص514 .

جونز :"المقطع المنبور بقوة ينطقه المتكلم بجهد أعظم من المقاطع المجاورة له في الكلمة أو الجملة . فالنبر إذًا نشاط ذاتي للمتكلم ينتج عنه نوع من البروز لأحد الأصوات أو المقاطع بالنسبة لما يحيط به ، أما الأثر السمعي المرتبط بالنبر فهو العلو[1]...".

ثانيًا - العربية بين واقع النبر وعدمه :

ذكر برجشتراسر أن العربية لم تعرف النبر اعتمادًا على بعض الأدلة التي يراها من وجهة نظرة صحيحة ، ولكن الدكتور /رمضان عبد التواب ناقشه في هذه الأدلة مثبتًا وجود النبر في العربية ، حيث يرى برجشتراسر : " أنه لا نص نستند عليه في إجابة مسألة ، كيف كان حالة العربية الفصيحة في هذا الشأن ، مما يتضح من اللغة نفسها ، ومن وزن شعرها ،أن الضغط لم يوجد فيها ، أو لم يكن يوجد ، وذلك أن اللغة الضاغطة ، يكثر فيها حذف الحركات غير المضغوطة ، وتقصيرها وتضعيفها ، من الحركات المضغوطة ، وقد رأينا أن كل ذلك نادر في اللغة العربية ، وإذا نظرنا إلى اللهجات العربية الدارجة ، وجدنا فيها كلها –فيما أعرف – الضغط ، وهو في بعضها قوى ، وفي بعضها متوسط ، غير أنها تتخالف في موضعه من الكلمة في كثير من الحالات ، فمن المعلوم أن المصريين يضغطون في مثل : (مطبعة) المقطع الثاني ، وغيرهم يضغطون الأولى ، فلو أن الضغط كان قويًّا في الزمان العتيق ، لكانت اللهجات على أغلب الاحتمال – حافظت على موضعه من الكلمة ، ولم تنقله إلى مقطع آخر[2]".

"وهذا هو رأى "برجشتراسر" , أما أنه ليس لدينا نص ، نستند إليه في معرفه حال النبر في العربية القديمة ، فهذا صحيح ، أما أن العربية لم تكن تنبر ، فإننا نشك في ذلك الذي قاله برجشتراسر ، وهو يغفل في كلامه التطور اللغوي ، وتأثير الشعوب المختلفة ، التي غزتها العربية ، بعاداتها القديمة في النبر، وأَثَّر ذلك في اختلاف موضعه من الكلمة ، كما يبدو لنا الآن ، في تعدد طرق النبر في مثل كلمة "مطبعة[3]".

ثالثًا - أقسام النبر :

عندما تَمَّ تجزئة الكلمة العربية إلى عدة مقاطع تعددت وتنوعت أشكالها فلم تكن تلك المقاطع لتخرج بصورة واحدة بل كانت بعض أجزائها أوضح من الأخرى ، ومن هنا ظهرت الصورة الأولى

([1])دراسة الصوت اللغوي ص 120 .

([2]) التطور النحوي ص46 .

([3])المدخل إلى علم اللغة ص104 .

في النبر العربي ، ثم ظهرت الكلمة بعد ذلك بصورتها الكاملة ليمثل الضغط عليها بين أجزاء الجملة الصورة الأخرى فيه .

ومن هنا ظهر النبر في العربية من خلال صورتي المقطع في الكلمة ، والكلمة في الجملة ،"فالفرق ما بين النبر في الصرف و النبر في الكلام هو فرق ما بين مقررات القاعدة ومطالب السياق .وبهذا يصبح النبر في الكلام هو الظاهرة الموقعية لأنه نبر الجمل المستعملة فعلا وهي ميدان الظواهر الموقعية ، أما النبر في نظام الصرف فهو نبر الكلمة المفردة أو الصيغة المفردة على الأصح وهو نبر صمت القاعدة نفسها وصمت اللغة من بعدها[1]".

لذلك فقد تمَّ تقسيم النبر في العربية إلى قسمين :

القسم الأول :نبر الكلمة

إن نبر الكلمة عبارة عن وضوح سمعي خاص بمقطع ما داخل نسيج الكلمة ، وذلك كوقوع النبر على المقطع الأول (كَ) في (كتب) ، والمقطع (تُ) في يكْتُبُ،"ولحسن الحظِّ لا تختلف معاني الكلمات العربية ولا استعمالها باختلاف مواقع النبر فيها[2] ".

"ومرجع هذا الوضوح السمعي إلى عنصرين يرتبط أحدهما بظاهرة علو الصوت و انخفاضه وهي ترتبط بدورها بحركة الحجاب الحاجز في ضغطه على الرئتين ليفرغ ما فيهما من الهواء فتؤدِّى زيادة كمية الهواء إلى اتساع مدى ذبذبة الأوتار الصوتية فيكون من ذلك علو الصوت . ويرتبط العنصر الآخر بتوتر التماس بين أعضاء النطق في مخرج الصوت . أو بعبارة أخرى يأتي النبر من التوتر والعلو في الصوت اللذين يتصف بهما موقع معين من مواقع الكلام[3] ".

ويمكن تحديد النبر في كل كلمة وذلك على حسب عدد أجزائها ووحدتها ونوع الأشكال المقطعية فيها ؛ وذلك لآداء دور صرفي في كل كلمة ، حيث " يكون النبر على مستوي الصيغة والكلمة ذا وظيفة صرفية هي تقديم القيم الخلافية التي تفرق مع الكمية بين معني صرفي ومعنى صرفي آخر ويمكن بواسطتهما مثلا أن نفرق بين طوائف من الصيغ مثل : فَعِل – فَعَّل– فاعل– فعيل

---

(1)اللغة العربية معناها ومبناها ص 170 .

(2) الأصوات الغوية ص 162.

(3)اللغة العربية معناها ومبناها ص 171 .

حيث يفرق بين الكلمات الأربع بالكمية وبين الثلاث الأول وبين الرابعة بالنبر فيقع النبر في الكلمات الثلاث الأولي على المقطع الأول وفي الرابعة على الثاني[1]".

ومن خلال هذا القسم يمكن أن نعرض لقواعد النبر النظرية ونماذجه التطبيقية في السورة مجال البحث.

قواعد النبر المقطعي في العربية ونماذجه في سورة الزخرف

ذكر الدكتور / إبراهيم أنيس أنه " ليس لدينا من دليل يهدينا إلى موضع النبر في اللغة العربية ، كما كان ينطق بها في العصور الإسلامية الأولى ، إذ لم يتعرض له أحد من المؤلفين القدماء . أما كما ينطق بها القراء الآن في مصر ، فلها قانون تخضع له ولا تكاد تشذ عنه[2] ".

وقد أشار إلى مواضع النبر المقطعي في العربية إجمالا بقوله : " لمعرفة موضع النبر في الكلمة العربية ، ينظر أولا إلى المقطع الأخير فإذا كان من النوعين الرابع والخامس ، كان هو موضع النبر ، وإلا نظر إلى المقطع الذي قبل الأخير فإن كان من النوع الثاني أو الثالث ، حكمنا بأنه موضع النبر ، أما إذا كان من النوع الأول ، نظر إلى ما قبله فإن كان مثله أي من النوع الأول أيضًا ، كان النبر على هذا المقطع الرابع حين نعدُّ من الآخر إلا في حالة واحدة وهي أن تكون المقاطع الثلاثة التي قبل الأخير من النوع الأول ،هذه هي مواضع النبر العربي ،كما يلتزمها مجيدو القراءات القرآنية في القاهرة[3] " .

ولكن مع التفصيل والتوضيح ذكر الدكتور/ تمام حسان هذه القواعد بادئًا بمقدمة بَيَّن فيها أقسام النبر في هذا الجانب بقوله : " وينقسم النبر بحسب " القاعدة "من حيث القوة و الضعف إلى قسمين :

1- النبر الأولى ويكون في الكلمات والصيغ جميعًا لا تخلو منه واحدة منها.

2- النبر الثانوي وهو يكون في الكلمة أو الصيغة الطويلة نسبيًّا بحيث يمكن لهذه الكلمات أن تبدو للأذن كما لو كانت كلمتين ، أو بعبارة أكثر دقة عندما تشتمل الكلمة على عدد

([1])السابق الصفحة نفسها .

([2])الأصوات اللغوية ص 159 .

([3])السابق ص 161 .

من المقاطع يمكن أن يتكون منه وزن كلمتين عربيتين . فكلمة " مستحيل " مثلا يمكن في مقاطعها أن تكون وزن كلمتين عربيتين هما " بعد – ميل " ومن ثم تشتمل على نبر أولى على المقطع الأخير ونبر ثانوي على المقطع الأول ويبقى المقطع الأوسط هو ما يقابل الدال المفتوحة دون نبر . ولكل من النبر الأولى والنبر الثانوي قواعده الخاصَّة به التي تنسجم مع وظيفته الإيقاعية في حدود الصيغة أول الكلمة[1] " .

وسوف أعرض الآن القواعد الأربعة للنبر العربي كما هي عند الدكتور/ تمام حسان مع ذكر نماذجه من سورة الزخرف معتمدًا على قواعد النبر الأولى فقط ، وذلك إذ نظرنا إلى أجزاء ومقاطع الكلمة من نهايتها ، وسوف أقتصر في ذلك على ما له نماذج في السورة فقط .

القاعدة الأولى : يقع النبر على المقطع الأخير في الكلمة أو الصيغة إذا كان هذا المقطع طويلا (أي على صورة (ص م ص) :أي صامت + حركة طويلة + صامت .

ومن خلال تحليل كل كلمة على حدة في سورة الزخرف تبين للباحث أن هذا الشكل المقطعي قد تم الضغط و النبر عليه في جميع الكلمات التسعة والثمانين التي وقعت في نهاية الآيات في حالة الوقف عليها ، وهو يمثل الشكل الرابع من أشكال المقاطع الصوتية ، وهو الذي سيطر على جميع فواصل السورة .

وتبين أيضًا أن أكثر من نصف السورة في كلماتها الأخيرة يحمل هذا الشكل المقطعي وهو : (ص ح ص + ص ح + ص ح ح ص) . ومن أمثلة النبر على هذا المقطع في سورة الزخرف :

1- النبر على المقطع (لُون) في (تعقلون) في قوله تعالى :(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(3) .

2- النبر على المقطع (فِين) في (مسرفين) في قوله تعالى : (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ) (5).

3- النبر على المقطع (لِيم) في (العليم) في قوله تعالى :(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (9).

4- النبر على المقطع (دُون) في (تهتدون) في قوله تعالى :(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ

[1] اللغة العربية معناها ومبناها ص 172 .

لَكُمْ فِيهَا سُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (10) .

5- النبر على المقطع (جُون) في (تخرجون) في قوله تعالى : (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) (11) .

6- النبر على المقطع (بُون) في (تركبون) في قوله تعالى : (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) (12) .

7- النبر على المقطع (نِين) في (مقرنين) في قوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ)(13) .

8- النبرعلى المقطع (لُون) في (يسئلون) في قوله تعالى : (وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) (19) .

9- النبرعلى المقطع (دُون) في (مهتدون) في قوله تعالى : (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ) (22) .

10- النبرعلى المقطع (دُون) في (مقتدون) في قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) (23) .

وأما الشكل الرابع ورمزه (ص ح ص ص) ، والشكل السادس ورمزه (ص ح ح ص ص) فلا وجود لهما في هذه السورة .

فإذا كانت الكلمة ذات مقطع واحد وقع عليه النبر أيًّا كانت كميته مثل :-

1- (فِي) في قوله تعالى : (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) (4) .

2- (مِنْ) في قوله تعالى : (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ) (6) .

3- (مَا) في قوله تعالى : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (7) .

4- (أمْ) في قوله تعالى : (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ) (16) .

5- (إنْ) في قوله تعالى:(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (20) .

القاعدة الثانية : يقع النبر على المقطع الذي قبل الأخير في الحالات الآتية :

1- إذا كان ما قبل الآخر متوسطًا ورمزه (ص ح ح) أو (ص ح ص) والمقطع الأخير :-

أ- قصيرًا ورمزه (ص ح) ، وذلك مثل :-

1- المقطع (بَا) في (عباد) في قوله تعالى : (يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)

. (68)

2- المقطع (ذَا) في (العذاب) في قوله تعالى : (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ) (50) .

3- المقطع (كَا) في (يكاد) في قوله تعالى : (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ) . (52)

4- المقطع (ثُو) في (ماكثون) في قوله تعالى : (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ) (77) .

5- المقطع (بُو) في (يحسبون) في قوله تعالى : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (80) .

وأما إذا كان ما قبل الآخر متوسطًا ورمزه (ص ح ص) والمقطع الأخير قصيرًا : فمن أمثلته :

1- المقطع (لِيْ) في (عليه) في قوله تعالى : (لِتَسْتَوُوا على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ)(13) .

2- المقطع (قَيْ) في (المشرقين) في قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) (38) .

3- المقطع (أنْ) في (أفأنت) في قوله تعالى : (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) (40) .

4- المقطع (عَو) في (فرعون) في قوله تعالى : (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ)(51).

5- المقطع (حَقْ) في (بالحق) في قوله تعالى : (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) (78).

ب- متوسطًا سواء كان رمزه (ص ح ح) أو (ص ح ص) ، فمن أمثلته :

1- المقطع (بِيْ) في (عربيًّا) في قوله تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (3) .

2- المقطع (بِيْ) في (نبيّ) في قوله تعالى : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (7) .

3- المقطع (لَكْ) في (أهلكنا) في قوله تعالى : (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) (8) .

4- المقطع (شَرْ) في (أنشرنا) في قوله تعالى : (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) (11) .

5- المقطع (نَا) في (بناتٍ) في قوله تعالى : (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ) (16) .

6- المقطع (أهْ) في (بأهدى) في قوله تعالى : (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ)(24) .

2- إذا كان ما قبل الآخر قصيرًا في إحدى الحالتين الآتيين :

أ- إذا بدئت به الكلمة نحو :-

1- المقطع (إ) في (إذَا) في قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) (38) .

2- المقطع (عَ) في (على) في قوله تعالى : (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ على صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (43) .

3- المقطع (أَ) في (أنا) في قوله تعالى :(أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ)(52).

4- المقطع (لَ) في (لكم) في قوله تعالى : (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ) (73) .

5- المقطع (حَ) في (حَتَّى) في قوله تعالى : (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) (83) .

ب- سبقه المقطع الأقصر ذو الحرف الوحيد الساكن الذي يتوصل إلى النطق به بهمزة الوصل نحو :

1- المقطع (خَ) في (اتخذ) في قوله تعالى : (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ) (16) .

2- المقطع (تَ) في (فاتقوا) في قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) (63) .

3- المقطع (لَ) في (فاختلف) في قوله تعالى : (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) (65) .

4- المقطع (خ) في (ادخلوا) في قوله تعالى : (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) (70) .

5- المقطع (رَ) في (أبرموا) في قوله تعالى : (أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) (79).

القاعدة الثالثة : يقع النبر على المقطع الثالث من الآخر إذا كان :

أ- قصيرًا متلوًّا بقصيرين نحو :

1- المقطع (كْ) في (ينفعكم) في قوله تعالى : (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ

مُشْتَرِكُونَ) (39) .

2- المقطع (مَ) في (يومهم) في قوله تعالى : (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) (83) .

ب- قصيرًا متلوًّا بقصير ومتوسط نحو :

1- المقطع (سُ) في (سُبُلا) في قوله تعالى : (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (10) .

2- المقطع (بَ) في (بلدة) في قوله تعالى : (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) (11) .

3- المقطع (ءَ) في (جاءهم) في قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ) (30) .

4- المقطع (سُ) في (رسلنا) في قوله تعالى : (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) (45) .

5- المقطع (مَ) في (مثلا) في قوله تعالى : (وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) (57) .

ج- متوسطًا متلوًّا بقصيرين نحو :

1- المقطع (نَزْ) في (نَزَّل) في قوله تعالى : (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) (11) .

2- المقطع (نِعْ) في (نعمة) في قوله تعالى : (لِتَسْتَوُوا على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) (13) .

3- المقطع (بُشْ) في (بُشِّر) في قوله تعالى : (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) (17) .

4- المقطع (قَبْ) في (قبل) في قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) (23) .

5- المقطع (يكْ) في (يكفر) في قوله تعالى : (وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ

بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) (33).

د- متوسطًا متلوًّا بقصير ومتوسط نحو :

1- المقطع (إنْ) في (إنَّني) في قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ)(26) .

2- المقطع (بَعْ) في (بعضهم) في قوله تعالى : (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)(32) .

3- المقطع(سُخْ) في (سخريًّا) في قوله تعالى:(لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا)(32) .

4- المقطع (أمْ) في (أمة) في قوله تعالى: (وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)(33) .

5- المقطع (زُخْ) في (زخرفًا) في قوله تعالى: (وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ. وَزُخْرُفًا) (35 – 34) .

القاعدة الرابعة : يقع النبر على المقطع الرابع من الآخر إذا كان الأخير متوسطًا والرابع من الآخر قصيرًا وبينهما قصيران ، ويغلب في المقطع الأخير في هذه الحالة أن يكون تنويناً أو إضمارًا أو إشباعًا ، ولا يقع النبر على مقطع يسبق هذا الرابع من الآخر نحو :

1- المقطع (أَ) في (أشهدوا) في قوله تعالى: (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلونَ)(19) .

2- المقطع (فَ) في (فطرني) في قوله تعالى: (إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) (27) .

3- المقطع (جَ) في (وجعلها) ، والمقطع (ك) في (كلمة) في قوله تعالى: (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (28) .

4- المقطع (ضَ) في (ضربوهو) في القراءة بالإشباع في قوله تعالى: (وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) (58) .

5- المقطع (رُ) في (رُسُلنا) في قوله تعالى: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (80) .

5- تغيير مواضع النبر وأثره في سورة الزخرف

قد ينتقل النبر المقطعي من شكل إلى شكل آخر طبقًا لقواعد النبر السابقة ، وذلك من خلال تغير صورة الكلمة العربية ، حيث يؤدي هذا التغيير إلى انتقال موضع النبر ، فـ " قد يطرأ على الكلمة

من الأحكام اللغوية ما يستوجب انتقال النبر من موضعه إلى مقطع قبله ، أو آخر بعده من الكلمة[1]"

ومن هذه المواضع التي يتم فيها هذا التغيير والانتقال من نبر مقطع إلى مقطع آخر ما يأتي :

1- الاشتقاق

ظهر الاشتقاق في العربية كصورة من صور التغيير الشكلي والدلالي ، وإذا تمَّ هذا التغيير فلابد من أن يصحبه انتقال في موضع النبر المقطعي ، حيث قيل: " فاشتقاق كلمة من أخرى قد يؤدي إلى تغيير موضع النبر[2] " .

ومن نماذج هذا التغيير في سورة الزخرف :

- تحويل النبر من الضغط على الشكل الأول ورمزه (ص ح) إلى النبر على الشكل الثالث ورمزه (ص ح ص) ، وذلك كما في صورة الفعل الماضي في (سأل) ، و(نظر) ، و(نزل) ، و(كفر) ، و(سمع) ، و(ضحك) ، و(ملك) ، و(صفح) فالنبر في هذه الكلمات على الشكل الأول ويمثله المقطع الأول فيها ؛ لأن هذه الأفعال قد تجزئت فيها المقاطع إلى هذا الشكل : (ص ح + ص ح + ص ح) ، وأما في حالة تحويل هذه الأفعال إلى صورة المضارع في سورة الزخرف فإن النبر فيها يأتي على الشكل الثالث ويمثله المقطع الأول في هذه الكلمات وهي : (يسئلون)(19) ، (فانظر)(25) ، (يكفر)(33) ، (يسمع)(40) ، (وسئل)(45) ، (يضحكون)(47) ، (يملك)(56) ، (فاصفح)(89) .

وقد وردت الصورة المقطعية بهذه الصورة (ص ح ص+ ص ح + ص ح) في (تسمع - يكفر - يملك) ، وبهذه الصورة (ص ح ص+ ص ح ص) في (وسئل – فاصفح - فانظر) ، وبهذه الصورة (ص ح ص + ص ح + ص ح ح + ص ح) في (يسئلون - يضحكون) .

2- إسناد الفعل إلى الضمائر المتحركة

" كذلك نلحظ انتقال النبر حين يسند الفعل إلى الضمائر ، أو حين يتصل بالكلمة ضمائر النصب أو الجر على شريطة أن يغير كل هذا من نسيج الكلمة الأصلية[3] " .

فالشكل المقطعي لنسيج الكلمة العربية يتغير عند اتصال الفعل بضمائر الفعل المتحركة ، ومن

---

(1) الأصوات اللغوية ص164 . وينظر : علم الأصوات ص 517 ، 518 .

(2) الأصوات اللغوية ص 164 .

(3) السابق الصفحة نفسها .

ثم يتغير موضع النبر فيها عن حالته قبل إسناده إلى هذه الضمائر ، أما في حالة إسناده إلى الضمائر الساكنة فلا يحدث فيه تغيير .

ومن نماذج هذا التغيير في سورة الزخرف :

– تحويل النبر من الضغط على الشكل الأول ورمزه (ص ح) إلى النبر على الشكل الثالث ورمزه (ص ح ص) ، وذلك في بعض الكلمات مثل (وجد) ، و(رفع) ، و(جعل) ؛ لأن الشكل المقطعي لهذه الكلمات وبهذه الصورة هو (ص ح + ص ح + ص ح) ، ولكن في حالة تحويل هذه الكلمات في سورة الزخرف بعد إسناد الضمائر يتحول موضع النبر فيها إلى المقطع الثاني وهو يمثل الشكل الثالث ، فتصبح هذه الكلمات بهذه الصورة (وجدنا)(23) ، و(رفعنا)(32) ، و(جعلنا)(45).

– تغيير صورة النبر في (وجد) من المقطع الأول (وَ) ورمزه (ص ح) إلى المقطع الثاني ورمزه (ص ح ص) في (وجدتم)(24) ، وكذلك في(مَتَّعَ) من المقطع الثاني (تَ) ورمزه (ص ح) إلى المقطع الثاني الذي يمثله الشكل الثالث ورمزه (ص ح ص) في (مَتَّعْتُ) (29) ، وكذلك في (ورث) بعد أن أصبحت صورتها (أورثتموها)(72) وكذلك في (أرسل) ، و(أهلك) بعد أن أصبحت (أرسلنا)(45) ، و(أهلكنا)(80) .

3- **الجزم**

يتغير النبر المقطعي في صورة الفعل عند اتصاله بإحدى أدوات الجزم عن حالته قبل اتصاله بهذه الأدوات ، وليس لهذا الموضع نماذج في سورة الزخرف .

ولكن ليس معنى هذا التغيير في مواضع النبر الذي يصيب الكلمة أن اللغة العربية قد تُصَنَّف تحت دائرة اللغات ذوات النبر الحر أو القابل للحركة ، بل تصنف طبقًا لقواعد النبر الثابت ؛ وذلك لأنها في كل حالة تخضع لقواعد وشروط معينة ، حيث " صَنَّف الدارسون اللغات في عمومها إلى صنفين رئيسيين ، من حيث ثبات النبر ولزومه مقطعًا معيَّنًا أو حريته في الانتقال من مقطع إلى آخر في الكلمة الواحدة . نعتوا الصنف الأول باللغات ذوات النبر الثابت . والثاني باللغات ذوات النبر الحر ، أو القابل للحركة . ومن أمثلة الصنف الأول اللغة العربية ، حيث إن النبر في كلماتها ثابت يخضع لقواعد منضبطة محددة ، بحسب بنية الكلمة ومكوّناتها ، ولا ينتقل من مكان إلى آخر إلا بالطريق الخطأ أو التجاوز في النطق تأثُّرًا بلكنة خاصة أو محلية ، فالفعل الماضي الثلاثي المجرد مثلا

منبور مقطعه الأول دائمًا ، وكذلك الحال في اسم الفاعل فيه في حالة الوقف عليه بالسكون ، نعم ، قد يتغير موقع النبر إذا خضعت الكلمة العربية لنوع من التصريف أو الاشتقاق ، كما في نحو "ضربت" ، حيث يقع النبر على المقطع الثاني لا الأول ، ولكن ليس هذا انتقالا للنبر ، أو تحريراً لحركته ، حيث إن النبر في هذه الحالة الأخيرة أيضًا ثابت خاضع لقوانين النبر في هذه اللغة في مثل هذه البيئة الجديدة التي ظهرت بعد تصريف الكلمة . وخلاصة القول في النبر الثابت أنه نبر يخضع لقوانين مرسومة مطردة ، يلزم بمعيارها مقطعًا أو مقاطع معينة لا يبرحها ، بحسب بنية الكلمة ، ومكوناتها المقطعية وكيفيات تتابعها . وباختصار شديد النبر الثابت نبر يمكن التنبؤ به . وتعرف مواقعه بوضوح تام . وهذا هو الحال في لغتنا العربية الفصيحة ، كما يخبرها أهل الاختصاص والمعرفة اللغوية[1] " .

القسم الثاني : نبر الجملة

إذا كان النبر المقطعي داخل الصيغة أو الكلمة يعتمد على الصورة المقطعية الخاصة بكل كلمة عربية فيختلف النبر فيها من موضع إلى آخر دون ملاحظة أي ملمح دلالي يأتي نتيجة لاختلاف هذه الصور ، فإن نبر الجملة فيها يختلف عن ذلك تمامًا ، حيث يحمل النبر في هذه الحالة قيمة دلالية قد تأتي عن طريق دفع توهم متوهم ، أو ظن ظانّ ، أو لتقرير حقيقة قد يشك السامع في إثباتها ، أو التأكيد على أمر ، فيأتي نبر الجملة لإثبات هذه الحقائق وغيرها .

فنبر الجملة : " هو أن يعمد المتكلم إلى كلمة في جملة فيزيد من نبرها ويميزها عن غيرها من كلمات الجملة ، رغبة منه في تأكيدها أو الإشارة إلى غرض خاص ، وقد يختلف الغرض من الجملة تبعًا لاختلاف الكلمة المختصة بزيادة نبرها ، ونبر الجملة شائع في كثير من اللغات ، ففي جملة عربية مثل (هل سافر أخوك أمس؟) يختلف الغرض منها باختلاف الكلمة التي زيد نبرها ، فحين نزيد كلمة "سافر" في هذه الجملة ، قد يكون معناها أن المتكلم يشك في حدوث السفر من أخي السامع ، ويظن أن حدثًا آخر غير السفر هو الذي تمَّ , فإذا ضغط المتكلم على كلمة (أخوك) فهم من الجملة أن المتكلم لا يشك في حدوث السفر وإنما الذي يشك فيه هو فاعل السفر ، فربما كان أباه أو عمه أو صديقه لا أخاه ، و أخيرًا إذا زيد كلمة "أمس" فهم من الجملة أن الشك في تاريخ السفر . وزيادة

[1] علم الأصوات ص 516 ، 517 .

نبر الكلمة في الجملة ، لا يعدو أن يكون زيادة في المقطع الهام من هذه الكلمة . ففي كلمة مثل (أخوك) ، نعلم من القواعد السابقة أن المقطع المنبور هو (خو) ، ليصبح أوضح في السمع مما كان[1]" .

ومن هنا " فيمتاز هذا النوع عن سابقه بأن نبر الجملة يمكن وصفه بكونه تأكيدًا أو تقريريًّا بخلاف نبر الصيغة أو الكلمة[2] " .

ويمكن تلخيص الفرق بين التأكيدي و التقريري في نقطتين :

1- أن دفعة الهواء في النبر التأكيدي أقوى منها في التقريري.

2- أن الصوت أعلى في التأكيدي منه في التقريري ، وأي مقطع في المجموعة الكلامية ، سواء كان في وسطها أو في آخرها ، صالح لأن يقع عليه هذا النوع من النبر[3] .

وقد وضَّح الدكتور/ كمال بشر حقيقة نبر الجملة بشيء من التفصيل يمكن الاجتزاء ببعض الفقرات من كلامه لتوضيح حقيقة هذا النبر .

" أما على مستوى الجملة فإن للنبر وظائف بالغة الأهمية ، إنه عند تنوع النبر ودرجاته يفيد التأكيد أو المفارقة ، حيث ينتقل النبر القوي من كلمة إلى أخرى ، قصدًا إلى بيان هذا التأكيد أو الكشف عن هذه المفارقة ، وللنبر على مستوى الكلام المتصل وظيفة مهمة ، ترشد إلى تعرف بدايات الكلمات ونهاياتها ، فمن المعلوم أن الكلمة في سلسلة الكلام المتصل قد تفقد شيئًا من استقلالها ، فقد تتداخل مع غيرها ، أو تفقد جزءًا من مكوِّناتها ، أو تدغم أطرافها من بدايات كلمة لا حقة ، إلخ . وهنا يبرز النبر عاملا من عوامل تعرف الكلمة ، وتعرف بداياتها ونهاياتها ، وبخاصة في اللغات ذات النبر الثابت الجاري على قوانين منضبطة مطردة ، كما هو الحال في اللغة العربية . فهي قوانين – وإن كانت متشعبة تشعب صور تصريفات الكلمة ومكاناتها – تمكن العارف من التنبؤ بمواقع النبر ودرجاته ... ولنا أن نقرِّر أن للغة العربية شبهًا قريبًا باللغات النبرية من حيث توظيف النبر وتوزيع درجاته توزيعًا مناسبًا لمقاصد الكلام على مستوى الجملة ، فمن المعروف أن كل جملة

---

(1) الأصوات اللغوية ص162 .

(2) مناهج البحث في اللغة ص163 .

(3) الفنولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم ص86 . وينظر: مناهج البحث في اللغة ص 163 .

أو عبارة تحتوى عادة على مجموعة من الكلمات ذات الأهمية المناسبة ، وتختلف الأهمية النسبية باختلاف الجمل نفسها وباختلاف المقامات المناسبة لها ، فتنوع هذه المقامات أو المواقف اللغوية يؤثر حتمًا في درجة الأهمية بالكلمات ، ومن مؤشرات هذا الاهتمام توظيف النبر توظيفًا مناسبًا من حيث قوته وكيفيات توزيعه في الجملة ، وقد وجدنا بالنظر الدقيق أن الكلمات ذات الأهمية النسبية في الجملة العربية في المواقف العادية الحيوية هي التي تنتمي للأجناس الصرفية الآتية :

1- الأسماء

2- الصفات

3- أسماء الإشارة وأدوات الاستفهام

4- المكملات بالحال أو التمييز ز أو الظرف

5- الأفعال الرئيسية ، ومعنى هذا أن الحروف وكثيرًا من الأدوات والضمائر الشخصية وأسماء الموصول إلخ ، كلها من الأجناس التي لا يصاحبها نبر واضح من الحالات الحيوية في الكلام المتصل ، ولا يعني هذا بحال أن هناك تفضيلا بين كلمة وأخرى ، وإنما الذي نريد أن نقوله هو أن هناك أهميات نسبية للكلمات بحسب المقامات المختلفة ، ومن مظاهر هذا الاهتمام توزيع النبر بدرجاته المختلفة توزيعًا يعدل درجة الاهتمام بهذه الكلمة أو تلك ، فالكلمات ذات النبر العادي يلحقها نبر أقوى وأشد ، والكلمات غير المنبورة في الحالات العادية تتحمل نبرًا من نوع معين ، وفقًا لمقتضى كل حالة ...فالنبر على مستوي الجملة له قيمة دلالية واضحة في مجمل اللغات النبرية ، حيث يتغير المعنى ، بتنوع مواقع النبر . أما في العربية فإن تعاور مواقع النبر يفيد قيمة تعبيرية خاصة ، وفاء بالمقصود أو الحالة التعبيرية المعينة ، كالتأكيد أو المفارقة إلخ ، على ما أشرنا إلى ذلك سابقًا[1] " .

وسوف نحاول قدر الطاقة في هذا القسم ومن خلال بعض الكلمات القرآنية في سورة الزخرف إبراز الدلالة التي قد تأتي نتيجة الضغط أو النبر على كلمة ما في سياقها القرآني ، وقد نصيب في ذلك – والله نسأل التوفيق –، و قد نخطئ ، ولكنها في النهاية محاولة لإبراز القيم الدلالية عن طريق نبر الجمل في السياق القرآني.

(1) علم الأصوات ص515 ، 519 ، 526 .

نبر الجملة وأثره الدلالي في سورة الزخرف

من خلال صورة آدائية معينة تأتى عن طريق بذل طاقة أكبر في النطق ووضوح سمعي لكلمة من كلمات سورة الزخرف في سياقها القرآني يمكن أن تظهر طبيعة تلك الجمل وخصائصها الدلالية.

وسوف أعرض لألوان مختلفة من النبر عن طريق بعض النماذج من الجمل الخبرية التي تدور حول الإثبات و النفي و التوكيد ، ثم بعض الأساليب الإنشائية من خلال أسلوب القسم و الأمر و الاستفهام و التحضيض والشرط .

أولا - النبر على بعض الأساليب الخبرية

يأتي هذا النوع من النبر في كثير من الحالات في سورة الزخرف منها :

1- النبر على إنَّ + اللام في بعض الآيات ومنها :

أ- قوله تعالى : (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) (4) .

من خلال النبرعلى الحرفيين (إنَّ و اللام) في هذا السياق القرآني يمكن أن تظهر الدلالة التأكيدية التي تسيطر على هذه الجملة القرآنية ، حيث يؤدي هذا النبر إلى صفتين من صفات القرآن الكريم ، حيث يتحدث ربُّ العباد عز وجل عن كتابه الكريم ومنزلته السامية ، فيخلع عليه صفتين من صفات العلو و السمو ، وذلك تقريرًا لتلك الحقيقة و إثباتاً لوجودها ، فعن طريق هذا النبر " نستشعر القيمة الأصلية الثابتة لهذا القرآن في علم الله وتقديره ، وهذا حسبنا ، فهذا القرآن "عليّ" ... "حكيم" ... وهما صفتان تخلقان عليه ظل الحياة العاقلة ، وإنه لكذلك ! وكأنما فيه روح ذات سمات وخصائص ، تتجاوب مع الأرواح التي تلامسها ، وهو في علو وفي حكمته يشرف على البشرية ويهديها ويقودها وفق طبيعته وخصائصه ، وينشئ في مداركها وفي حياتها تلك القيم والتصورات والحقائق التي تنطبق عليها هاتان الصفتان : على ، حكيم ، وتقرير هذه الحقيقة كفيل بأن يشعر القوم الذي جعل القرآن بلسانهم بقيمة الهبة الضخمة التي وهبها الله إياهم ، وقيمة النعمة التي أنعم الله عليهم ، ويكشف لهم عن مدى الإسراف القبيح في إعراضهم عنها واستخفافهم بها ، ومدى استحقاقهم هم للإهمال والإعراض ، ومن ثم يعرِّض بهم وبإسرافهم ، ويهددهم بالترك

والإهمال جزاء هذا الإسراف : "أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ[1] "(5) " .

ف " (عليٌّ) أصله المرتفع ، وهو هنا مستعار لشرف الصفة ، وهو استعارة شائعة . و (حكيم) أصله الذي الحكمة من صفات رأيه ، فهو هنا مجاز لما يحوي الحكمة بما فيه من صلاح أحوال النفوس والقوانين المقيمة لنظام الأمة ، ومعناه : أن ما اشتمل عليه القرآن من المعاني هو من مراد الله وصدر عن علمه . ويجوز أيضًا أن يفيد هذا شهادة بعلو القرآن وحكمته على حد قولهم في اليمين (الله يعلم) و (علم الله)[2] " .

ب - قوله تعالى : (إِنَّ الْأِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ)(15).

يأتي النبر على (إن و اللام) في هذا السياق للتأكيد على أن ما زعموه من أنهم جعلوا لله من عباده جزءًا ادعاء باطل لا أساس له ،فهو " تذييل يدل على استنكار ما زعموه بأنه كفر شديد . و المراد بل الإنسان هؤلاء الناس خاصة ، و المبين: الموضح في كفره في أقواله الصريحة في كفر نعمة الله[3] ".

جـ- قوله تعالى :(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) (44) .

يأتي النبر على (إن و اللام) في هذه الجملة لبيان مكانة القرآن الكريم وعظمته ، حيث وصف في هذه الآية بأنه (ذكر) ، و الذكر في " نص هذه الآية هنا يحتمل أحد مدلولين : أن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة ، فلا حجة بعد التذكير، أو أن هذا القرآن أن يرفع ذكرك وذكر قومك ، وهذا ما حدث فعلا... فأما الرسول – صلى الله عليه وسلم – فإن مئات الملايين من الشفاه تصلي وتسلم عليه ، وتذكره ذكر المحب المشتاق آناء الليل و أطراف النهار منذ قرابة ألف و أربع مائة عام ، ومئات الملايين من القلوب تخفق بذكره وحبه منذ ذلك التاريخ البعيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأما قومه فقد جاءهم هذا القرآن و الدنيا لا تحسُّ بهم ، وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة ، وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية ، وهو الذي واجهوا به الدنيا فعرفتهم , ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها به ، فلما أن تخلو عنه

---

(1) في ظلال القرآن 5 / 3176 ، 3177 .

(2) التحرير و التنوير . 25 /162.

(3)السابق 25 /177 .

أنكرتهم الأرض , واستصغرتهم الدنيا ، وقذفت بهم في ذيل القافلة هناك ، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين ! وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التي اختارها الله لدينه , واختارها لِقيادة القافلة البشرية الشاردة , إذا هي تخلت عن الأمانة " وَسَوْفَ تُسْأَلونَ[1] " .

2 – النبر على ضمير الفصل (هو + إنَّ) ومن أمثلة ذلك : قوله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ " (64) .

أبرز الضغط على ضمير الفصل (هو) في هذه الآية إفادة القصر , مع الضغط أيضًا على حرف التوكيد (إنَّ) للتأكيد على ذلك , فالعبادة لا تكون إلا لله – سبحانه وتعالى – وحده , حيث قيل عن سياق هذه الآية : " وضمير الفصل أفاد القصر , أي الله ربي لا غيره ، وهذا إعلان بالوحدانية وإن كان القوم الذين أرسل إليهم موحدين , لكن قد ظهرت بدعة في بعض فرقهم الذين قالوا : عزير ابن الله ، وتأكيد الجملة بـ(إنَّ) لمزيد الاهتمام بالخبر فإن المخاطبين غير منكرين ذلك[2]".

3 – النبر على ضمير الفصل (هم) فقط , ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) (76) ، فالنبر على ضمير الفصل هنا أيضًا يفيد القصر , فـ " (هم) ضمير منفصل لا يطلب معادًا لأنه لم يجتلب للدلالة على معاد لوجود ضمير (كانوا) دالا على المعاد , فضمير الفصل مجتلب لإفادة قصر صفة الظلم على اسم (كان) , إذ قد كان حرف استدراك بعد النفي كافيًا في إفادة القصر كان اجتلاب ضمير الفصل تأكيدًا للقصر بإعادة صيغة أخرى من صيغ القصر , وجمهور العرب يجعلون ضمير الفصل في الكلام غير واقع في موقع إعراب فهو بمنزلة الحرف , وهو عند جمهور النحاة حرف لا محل له من الإعراب , ويسميه نحاة البصرة فصلا , ويسميه نحاة الكوفة عمادًا[3] " .

4 – النبر على المبتدأ (نحن) في قوله تعالى : " نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(32). قد يظن ظان أو يتوهم متوهم أن أمر الرزق يأتي نتيجة لسعي الإنسان واجتهاده في طلبه , فما كان من السياق القرآني إلا أن أظهر المبتدأ (نحن) بصورة أوضح من الكلمات الأخرى , وذلك من خلال الضغط عليه لدفع هذا الظن والتوهم وإثبات تلك الحقيقة التي تؤكد أن أمر الرزق موكول

---

(1) في ظلال القرآن 5 / 391 .وينظر : التحرير والتنوير 25 / 221 .

(2)التحرير والتنوير 25 / 248 .

(3)السابق 25 / 258 , 259 .

إلى الله عزَّ وجلَّ ليس لأحد فيه سبيل , وفي إثبات ذلك وتقريره إثبات لحقيقة أعظم , وهي أمر النبوة , فأمرها أيضًا موكول له سبحانه وتعالى وحده , والمعنى : " أي نحن الذين قسمنا بينهم الأرزاق , فلم نترك أمرها لهم , وإذا كان أمر الرزق – وهو تافه حقير – لم نتركه لهم , بل تولَّينا قسمته بأنفسنا , فكيف نترك أمر النبوة – وهو عظيم وخطير – إلى أهوائهم وشهواتهم ؟ والغرض الرد عليهم في اقتراحهم أن تكون النبوة موجَّهة لأحد الزعماء الأشراف أو الرؤساء الأثرياء[1] " .

5 – النبر على (إن) للنفي في قوله تعالى : (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) (81). عن طريق الأداة (إن) تتحول الجملة من الشرط إلى النفي , " والمعنى : وما كان للرحمن ولد فتفرع عليه : أنا أول العابدين لله , أي أتنزه عن إثبات الشريك له , وهذا عن ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وابنه[2] " .

ثانيًا : النبر على بعض الأساليب الإنشائية

تتعدد صور الأساليب الإنشائية وتختلف من حالة إلى أخرى في سورة الزخرف , ومن ثم تظهر قيمتها الدلالية , وخاصة من خلال الضغط على بعض كلماتها .

ومن النماذج الدالة على ذلك :

1- **النبر على (واو القسم) في قوله تعالى : (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)** (2) .

عن طريق النبر على واو القسم يأتي تأكيد أهمية المقسم به ، وهو القرآن الكريم ،حيث "أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن على أن القرآن جعله الله عربيًّا واضح الدلالة فهو حقيق بأن يصدقوا به لو كانوا غير مكابرين ، ولكنهم بمكابرتهم كانوا كمن لا يعقلون .فالقسم بالقرآن تنويه بشأنه وهو توكيد لما تضمنه جواب القسم ، إذ ليس القسم هنا برافع لتكذيب المنكرين ، إذ لا يصدقون بأن المقسم هو الله تعالى ، فإن المخاطب بالقسم هم المنكرون بدليل قوله (لعلكم تعقلون) وتفريع (أفنضرب عنكم الذكر صفحًا)عليه ، وتوكيد الجواب بـ(إن) كونه مبينًا ، وجعل جواب القسم أن الله جعله مبينًا تنويه خاص بالقرآن إذ جعل المقسم به هو المقسم عليه ، وهذا ضرب عزيز بديع لأنه يومئ إلى أنا المقسم على شأنه بلغ غاية الشرف , فإذا أراد المقسم أن يقسم على ثبوت شرف له لم يجد

---

(1) قبس من نور القرآن الكريم ص 50 ، 51 .وينظر : التحرير و التنوير 25 / 201 ، وفي ظلال القرآن 5 / 3186 ، 3187 .

(2)التحرير والتنوير 25 / 265 .

ما هو أولى بالقسم به للتناسب بين القسم والمقسم عليه[1] " .

2- **النبر على أداه التحضيض (لولا) في قوله تعالى "(وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ على رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (31) .**

من خلال الضغط على أداة التحضيض (لولا) تظهر أهمية (نُزِّل) في هذا السياق القرآني ، حيث تأتي تقريرًا لإثبات تلك الحقيقة التي تكمن في نفوس المشركين ، والتي تحمل اعتراضهم على النبي ورسالته ،ظنًا منهم أن الرسالة خاصة بذوى اليسار والجاه والسلطان ، فكيف ينزل القرآن الكريم على محمد – صلي الله عليه وسلم – ولم ينزل على غيره من زعماء أهل مكة ، أما كانوا أحق بذلك ؟ ومحمد – صلى الله عليه وسلم – ليس من زعماء قريش ولا من رؤساء عشائرهم وقبائلهم فكيف يتأتى له ذلك ؟ إذًا فقد حملت هذه اللفظة جانب الاعتراض الذي يظهر من خلال أنهم "قالوا :كيف تنزل الرسالة عليه وهو فقير يتيم !!وهلا نزلت على رجل شريف كبير ، من عظماء مكة أو الطائف !!(وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ على رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (31).يقصدون بالقريتين مكة ، والطائف ، أي هلا نزل القرآن على رجل عظيم ثري من أهل البلدين : مكة و الطائف ، كالوليد بن المغيرة ، وعروة بين مسعود !! لقد استبعدت قريش نزول القرآن على محمد –صلى الله عليه وسلم – , وهو فقير يتيم , لا يملك من حطام الدنيا شيء , واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء , محمد – صلى الله عليه وسلم – وإن كان معروفًا بخُلُقه ، واستقامته ، ولكنه لم يكن زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة ، ولا ثريًّا من أثرياء العرب ، وهم يعتبرون مقياس العظمة : الجاه ، والمال ، والحسب[2] ".

3- **النبر على أداه الشرط (مَنْ) في قوله تعالى: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (36) .**

عن طريق الضغط على أداة الشرط (مَنْ) تتضح دلاله الفعل (يعش) في هذا السياق القرآني ، والمعنى :"من ينظر نظرًا غير متمكن في القرآن ، أي من لاحظ له إلا سماع كلمات القرآن دون تدبر وقصد للانتفاع بمعانيه ، فشبه سماع القرآن مع عدم الانتفاع به بنظر الناظر دون تأمل[3] " .

---

(1) السابق 25 / 159 .

(2)قبس من نور القرآن الكريم ص 50 . وينظر: في ظلال القرآن 25 / 3186 .

(3)التحرير والتنوير 25 / 209 .

4- **النبر على همزة الاستفهام + الضمير (هم) في قوله تعالى :(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ)** (32).

عن طريق الضغط على همزة الاستفهام مع الضمير (هم) تتضح دلالة الإنكار ، فهذا الاستفهام "إنكار عليهم قولهم (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ على رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) فإنهم لما نصبوا أنفسهم منصب من يتخير أصناف الناس للرسالة عن الله فقد جعلوا لأنفسهم ذلك لا لله ، فكان من مقتضي قولهم إن الاصطفاء للرسالة بيدهم ، فلذلك قدم ضمير (هم) المجعول مسندًا إليه ، على مسند فعلى ليفيد معنى الاختصاص فسلط الإنكار على هذا الحصر إبطالا لقولهم وتخطئة لهم في تحكمهم ، ولما كان الاصطفاء للرسالة رحمة لمن يصطفي لها ورحمة للناس المرسل إليهم , جعل تحكمهم في ذلك قسمة منهم لرحمة الله باختيارهم من يختار لها وتعيين المتأهل لإبلاغها إلى المرحومين[1] " .

5- **النبر على همزة الاستفهام في قوله تعالى "(أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)** (40).

ظهر النبر على أداه الاستفهام في هذه الآية لدلالة الإنكار أيضًا ، حيث قيل :"والاستفهام لإنكار أن يكون حرص الرسول –صلي الله عليه وسلم – على هداهم ناجعًا فيهم إذا كان الله قدر ضلالهم فأوجد أسبابه ،قال تعالى:(إِنْ تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (37) ،ولما كان حال الرسول –صلى الله عليه وسلم – في معاودة دعوتهم كحال من يظن أنه قادر على إيصال التذكير إلى قلوبهم نزل منزلة من يظن ذلك فخوطب باستفهام الإنكار وسلط الاستفهام على كلام فيه قصر بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي مع إيلاء الضمير حرف الإنكار وهو قصر وقلب ، أي أنت لا تسمعهم ولا تهديهم بل الله يسمعهم ويهديهم إن شاء ، وهو نظير(أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)(يونس 99)[2] " .

6- **النبرعلى أداة الاستفهام (هل) في قوله تعالى(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)** (66).

من خلال النبر على أداه الاستفهام (هل) تتضح دلالة الإنكار في الآية ، فـ (ينظرون) بمعنى ينتظرون ، و الاستفهام إنكاري ، أي لا ينتظرون بعد أن أشركوا لحصول العذاب إلا حلول الساعة

([1])السابق 25 / 200 ، 201 .

([2])السابق 25 / 216 .

، وعبَّر عن اليوم بالساعة تلميحًا لسرعة ما يحصل فيه[1] " .

7- النبر على أداه الاستفهام (أنَّى) في قوله تعالى(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) .(87)

تظهر دلالة التعجب في صورة هذا الاستفهام من خلال الضغط على هذه الآداة ، والمعنى على ذلك :"فكيف يصرفون عن عبادته تعالى إلى عبادة غيره سبحانه ويشركون معه عزَّ وجلَّ مع إقرارهم بأنه تعالى خالقهم أو مع علمهم بإقرار آلهتم بذلك ، والفاء جزائية أي إذا كان الأمر كذلك فأنَّي إلخ ، والمراد التعجب من إشراكهم مع ذلك ، وقيل :المعني فكيف يكذبون بعد علمهم بذلك فهو تعجب من عبادة غيره تعالى وإنكارهم للتوحيد مع أنه مركوز في فطرتهم[2] ..." .

وبعد عرض هذه النماذج من الأساليب الخبرية والإنشائية في سورة الزخرف ،"ينبغي أن يُعلم أن هذه الأساليب لم تأت عوضًا عن النبر, كما يظن بعض العارفين ، النبر بدرجاته وقواعده وتوزيعه جزء من بنية العربية ، وجاءت هذه الأساليب مصاحبة له ، لأغراض بيانية معينة ، يشترك الطرفان (النبر وما صاحبه من أساليب خاصة)في التعبير عنها وإظهارها بصورة خاصة يقتضيها المقام المعين . وتوظيف العربية للنبر على مستوى الجملة بهذه الصورة التي تشبه سلوك اللغات النبرية على هذا المستوى فإنه لا يعنى أنها لغة نبرية بالمعنى الدقيق ، ذلك أن المعنى في اللغات النبرية يخضع للتغير (وبخاصة على مستوى الكلمة) بتغيير مواقع النبر ودرجاته وكيفيات توزيعه ، وليس الأمر كذلك في اللغة العربية .فالنبر في العربية على المستويين جميعًا ذو قوانين ثابتة مقررة ، بحيث يقع في مواقعه المعينة بحسب التركيب المنطقي للبنية اللغوية ، سواء أكانت هذه البنية كلمة أم جملة ، كل الذي حدث ويحدث أحيانًا هو أن النبر قد يأتي على درجات مختلفة من حيث القوة أو التوسط أو الضعف في بعض الجمل ومكوّناتها لأغراض تعبيرية خاصة ، ومعناه أن مواقع النبر لم تتغير ، وإن أصاب النبر شيء من التنوع في الدرجة بتنوع الأغراض والمقاصد ، وفي كل الحالات ما يزال المعنى العام للجملة ثابتًا ، وإن اشتُمت منه (بسبب تغير درجات النبر) ملامح دلالية إضافية ثانوية أو هامشية ، تفيد أغراضًا مقصودة كالتأكيد أو شدة الاهتمام أو المفارقة الخ[3] " .

---

(1)السابق 25/ 251 .

(2)روح المعاني 25/108 . وينظر: قبس من نور القرآن الكريم ص75 .

(3)علم الأصوات ص523 ، 524.

في النهاية لا بد من التأكيد على هذه الحقيقة التي تجمع بين نبري الكلمة و الجملة , وهى أن "النبر بنوعيه ليس إلا شدة في الصوت أو ارتفاعًا فيه , وتلك الشدة أو الارتفاع يتوقف على نسبة ضغط الهواء المندفع من الرئتين ، ولا علاقة له بدرجة الصوت أو نغمته الموسيقية[1]"

[1]الأصوات اللغوية ص 162 .

المبحث السابع : التنغيم

لقد منح الله سبحانه وتعالى الإنسان مجموعة من المشاعر والأحاسيس المختلفة والمتناقضة ، تبدو على صفحات وجه صاحبها لتعبر عن حاله ومدي تأثيرها فيه ، وذلك بدرجات متفاوتة بين بني البشر ، وكل صورة من هذه الصور لها قالب آدائي خاص يختلف عن القوالب الأخرى .

فالسعادة حينما تبدوعلى وجه صاحبها فإن لها ملمحًا آدائيًّا خاصًّا ، كذلك الحزن فإن له ملمحًا آخر ، وكذلك الحبُّ والبغض ، والأمل واليأس ، ثم التعجب والاستفهام والأمر والدعاء ، إلى آخر ما تفيض به النفس البشرية من مؤثرات مختلفة يبدو أثرها على شخصيته صاحبها ، ومن ثم في طريقة آدائه لألفاظ اللغة التي يعبر بها ومن خلالها عن هذه المشاعر .

لذلك ومن خلال التنويعات الصوتية التي يتميز بها كل قالب عن الآخر ظهر عند علماء اللغة ما يسمى بالتنغيم .

"والتنغيم في الكلام يقوم بوظيفة الترقيم في الكتابة ، غير أن التنغيم أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة ، وربما كان ذلك لأن ما يستعمله التنغيم من نغمات أكثر مما يستعمله الترقيم من علامات كالنقطة والفاصلة والشرطة وعلامة الاستفهام وعلامة التأثر وربما كان ذلك لسبب آخر . ولكن الذي لاشك فيه أن الكتابة إذا كان لها على النطق ميزة الدوام وإمكان الاستحضار مرة أخرى وإعادة التجربة وتخطى حدود الزمان والمكان فإن النطق له عليها ميزة الحياة والحركة والموقف الاجتماعي وربما أصبحت له قدرة مشاركتها عنصر الدوام وإمكان الاستحضار مرة أخرى وإعادة التجربة وتخطى حدود الزمان والمكان بعد اختراع أشرطة التسجيل والإذاعة والتليفزيون . وفي كل هذه المخترعات يحتفظ النص بدلالة النغمة وبالموقف الاجتماعي ، ويزيد التليفزيون عليها الاحتفاظ بتعبيرات الملامح وحركات أجزاء الجسم كالرأس واليدين مما يجعل الموقف أقرب شيء إلى الحياة[1]...".

وفي إبداع عجيب وغريب سيطر على القلوب قبل العقول ارتدت العربية ثوب الإجادة والتمكين في ترتيب عناصرها الصوتية المختلفة وصورتها التنظيمية الخاصة ومقاطعها الصوتية المتوازنة والمتنوعة ، وذلك على طريقة التنغيم .

([1]) اللغة العربية معناها ومبناها ص 226 ، 227 .

وحتى نتعرف على طبيعة التنغيم في الواقع التطبيقي لسورة الزخرف كان لابد من التمهيد لذلك أولا بعرض بعض العناوين الآتية :

أولا – ضابط التنغيم

ذكر علماء اللغة عدة تعريفات للتنغيم يجمعها الإطار الصوتي للتنويعات الموسيقية للتعبير عن آداء صوتي معين ، ومنها ما عبر به الدكتور / إبراهيم أنيس عنه بموسيقى الكلام ، ويعنى به : التنوع في درجات الصوت أو الكلمة [1].

وقيل هو : "ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام "[2].

أو هو :" المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع (الصعود) والانخفاض (الهبوط) في درجة الجهر في الكلام "[3].

أو هو "عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات في حدث كلامي معين"[4].

" فالكلام عند إلقائه تكسوه ألوان موسيقية لا تختلف عن "الموسيقي " إلا في درجة التواؤم والتوافق بين النغمات الداخلية التي تصنع كلا متناغم الوحدات والجنبات ، وتظهر موسيقي الكلام في صورة ارتفاعات وانخفاضات أو تنويعات صوتية ، أو ما نسميها نغمات الكلام ، إذ الكلام – مهما كان نوعه – لا يُلقى على مستوى واحد – وليس التنغيم هو النبر كما قد يظنُّ بعضهم . فالنبر وضوح نسبي في نطق مقطع من المقاطع ، وهو بهذا الوصف عامل مهم من عوامل التنغيم ، بالإضافة إلى عوامل أخري ، ذاتية وغير ذاتية كطبيعة الصوت ، وهيئات التراكيب ومواقفها وملابساتها الخارجية المتعلقة بالمتكلم وأغراضه . ونغمات الكلام دائمًا في تغير من آداء ومن موقف إلى موقف ، ومن حالة نفسية إلى أخرى[5]".

ثانيًا - صورتا التنغيم

يأتي التنغيم في العربية من خلال صورتين ، الصورة الأولى منها متعلقة بالمقطع في داخل إطار الكلمة ، ثم تأتي الصورة الثانية في إطار التركيب السياقي للجملة العربية .

(1) الأصوات اللغوية ص 163.
(2) مناهج البحث في اللغة ص 198 .
(3) علم اللغة د. محمود السعران ص 210.
(4) أسس علم اللغة ص 93 .
(5) علم الأصوات ص 533 .

إذًا يكون التنغيم في الكلمات كما يكون في الجمل ، فقد تنطق الكلمة المفردة بصورة تنغيمية مختلفة يظهر لكل صورة منها دلالة مختلفة عن الأخرى ، وذلك من خلال الاختلاف في درجة الصوت وتنويعه في كل مقطع من مقاطع الكلمة ، فتحمل كل درجة صورة تنغيمية مختلفة عن الأخرى ، وقد يكون نطق العبارة بصورة تنغيمية يجعل لها دلالة تختلف عن دلالة الجمل الأخرى .

وقد " برهنت التجارب الحديثة على أن الإنسان حين ينطق بلغته لا يتبع درجة صوتية واحدة في النطق بجميع الأصوات , فالأصوات التي يتكون منها المقطع الواحد قد تختلف في درجة الصوت ، وكذلك الكلمات قد تختلف فيها... والتسلسل الذي نلحظه في درجة الصوت يخضع لنظام خاص يختلف من لغة إلى أخرى ، ولابد من معرفة هذا النظام في اللغة التي يراد تعلمها ، وإلا فقد الكلام صبغته الخاصة ، وبعد عن النطق الطبيعي الخاص بكل لغة[1] ".

وهكذا تحَدِّد الآدائيات الخاصة بالمقاطع أو الكلمات الدور التنغيمي الخاص بكل قالب لغوي .

"فهناك القالب النغمي للكلمة الذي يمثل خط تغيرات نغمات مقاطعها بين صعود وهبوط واستواء ، ويتوقف عليه معرفة معناها في بعض اللغات ، وهناك القالب النفسي للجملة أو للتقطيعة الكلامية وهو يسمى بمليودى الكلام ؛ ويمثل خط ارتفاعات وانخفضات نغمات المقاطع المختلفة في داخل الجملة أو المجموعة الكلامية ، ويوصف هذا القالب أيضًا بالصعود والهبوط أو بكليهما ، تبعًا للطراز التعبيري للجملة أو للحالة النفسية للمتكلم[2] ".

إذًا فالتنويعات التنغيمية قد تأتي من خلال المقاطع إذا حصرنا التنغيم في الكلمة المفردة ، وأما إذا توسَّع نطاق التنغيم فالكلمة هي صاحبة الآداء في التنويع الآدائي داخل سياق الجمل .

والجانب الآدائي للكلمة القرآنية في السياق اللغوي داخل سورة الزخرف وأثره في تنوع الدلالة هو ما يعرض له الباحث في الإطار التنغيمي لهذه السورة ، لذلك تركز الدراسة عليه وتخصص له المحور الآتي .

ثالثًا – التنغيم السياقي

نتيجة لآداء صوتي معين تختلف درجاته من حالة إلى حالة أخرى ظهر التنغيم في الكلمات داخل الجمل ، والذي ينتجه تنوع واختلاف في توجيه الدلالة ، فتحديد الدلالة في تركيب الجمل واتجاهها وتنظيم الإطار الصوتي الخاص بها قد يكون التنغيم عاملا من أهم عوامله .

---

(1) الأصوات اللغوية ص 163 .

(2) علم الصوتيات د. عبد الله ربيع ، د. عبد العزيز علام ص 281 .

" فالتنغيم مصطلح صوتي وظيفي حلَّ الكثير من إشكاليات الدلالة اللغوية المتعلقة بالأصوات والسياقات التنظيمية ، إذ يتم تحديد الصور النطقية بموجب نمط التنغيم ، فجملة "جاء محمد " تتعدد صورها النغمية ، فهي تقريرية تارة ، أو استفهامية ، أو تهكمية ، أو تأكيدية ، أو يأتي للموافقة ، أو الرفض ، أو الدهشة ، أو الاحتقار ، أو الاشمئزاز ، تارة أخرى[1] ".

ومن هنا " فنغمات الكلام دائمًا في تغير من آداء إلى آخر ومن موقف إلى موقف ، ومن حالة نفسية إلى أخرى ... وإمكان التنويع في النغمات واسعة إلى حد كبير ، وفقًا لتنوع الكلام وظروفه ، وهذا التلوين الموسيقي يعطي الكلام روحًا ويكسبه معني: إنه يدل على الحالة النفسية للمتكلم ، كما يعد عاملا مهمًا من عوامل توضيح المعاني وتفسيرها ، وتمييز أنماط الكلام بعضها من بعض ، فالجملة الواحدة قد يتنوع معناها بتنوع صور نطقها وكيفية التنويع في موسيقاها .تأمل مثلا عبارة مثل: يا إلهي ! فقد تعني التحسر أو الزجر أو عدم الرضي أو الدهشة ...إلخ وفقًا للحالة المعينة . وهذه المعاني وغيرها إنما ندركها بلون الموسيقي التي تصاحبها عند النطق في كل حالة وعبارة[2] ".

وقد يكون التنغيم أثرًا من الآثار العكسية التي يتطلبها المقام ، حيث قيل : " من المواطن التي يصير فيها التنغيم ظاهرة موقعيه في السياق أن يعمد المتكلم إلى التظاهر بأمر هو عكس ما يتطلب الموقف من تنغيم ، كأن يقصُّ المتكلم أمر حادثة مات فيها عدد من أصحابه وأقربائه ولكنه يريد أن يبدو هادئًا في سرد القصة لئلا يثير أحران السامعين بصورة أشد فيصطنع لهذا الكلام الذي يحتمل نغمة الحسرة والجزع نغمة أخرى فيها هدوء وتماسك فيها تعطى الجملة وظيفة جديدة ونغمة غير نغمتها التي في النظام ويكون التنغيم ظاهرة سياقية[3] ".

وعلى ذلك أمكن تحديد ما يسمى عند علماء اللغة بتنغيم الجمل ، وذلك عن طريق التنويعات الموسيقية والخاصة بكل جملة ، فتنعيم الجمل " هو الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق ... فالجمل العربية تقع في صيغ وموازين تنغيمية هي هياكل من الأنساق النغمية ذات أشكال محددة ، فالهيكل التنغيمي الذي تأتي به الجملة الاستفهامية وجملة العرض غير الهيكل التنغيمي لجملة

---

(1) التنغيم اللغوي في القرآن الكريم د. سمير إبراهيم العزاوي ص 27 – الطبعة الأولى 1421 هـ – 2000م .

(2) علم الأصوات ص 533 ، 534 .

(3) اللغة العربية معناها ومبناها ص 309 ،310 .

الإثبات وهن يختلف من حيث التنغيم عن الجملة المؤكدة ، فلكل جملة من هذه صيغة تنغيمية خاصة فاؤها وعينها ولامها وزوائدها وملحقاتها نغمات معينة بعضها مرتفع وبعضها منخفض وبعضها يتفق مع النبر وبعضها لا يتفق معه ، وبعضها صاعد من مستوى أسفل ، وبعضها هابط من مستوى أعلي ، فللصيغة التنغيمية منحنى خاص بالجملة يعين على الكشف عن معناها النحوي كما أعانت الصيغة الصرفية على بيان المعنى الصرفي للمثال[1] ".

ومن هنا فـ " التنغيم هو الخاصة الصوتية الجامعة التي تلف المنطوق بأجمعه ، وتتخلل عناصره المكوِّنة له ، وتكسبه تلوينًا موسيقيًّا معينًا حسب معناه و مبناه ، وحسب مقاصده التعبيرية ، وفقًا لسياق الحال أو المقام ...والتنغيم إنما يتحدد إطاره وتدرك أنماط نغماته في نهايات الجمل بالفواصل الصوتية ، ونعني بها الوقفات والسكتات والاستراحات ، فهما (التنغيم والفواصل) متلازمان ، وهما معًا الأمارات الأساسية الدالة على أنماط التركيب وكيفيات تكوينها ، وبهما أيضًا يمكن تصنيف هذه التراكيب إلى أجناسها النحوية ، وتحليها تحليلاً لغويًّا سليمًا[2] ...".

رابعًا– مستويات التنغيم أو درجاته

ظهر حديثًا هذا المُصَنَّف الذي يحمل عنوان (التنغيم اللغوي في القرآن الكريم) عرض المؤلِّف من خلاله للمباحث التنغيمية عند العرب المحدثين ، وبعد جولة من خلال مُصَنَّفاتهم انتهى إلى أن مستويات التنغيم أو درجاته في العربية بين أجزاء الكلام في سياقها اللغوي تنتمي إلى ست مستويات ، ولكل مستوي ما يناسبه من دلالة .

حيث ذكر تحت عنوان أنماط الأساليب في القرآن "دراسة في التنوع التنغيمي ": " أن مستويات التحليل اللغوي من جهة النوع تنقسم إلى ستة مستويات :

1– الصاعدة :تتمثل في الأمر ، والترغيب ، والتعجب ، والاستفهام ، والإثارة ، والضراعة ، والإهانة ، والنهي المحض.

2– المستوية : تتمثل في التقرير والخبرية ، والتذكير ، والنصح ، والإرشاد ،والنداء المحض ، وطلب الانتباه .

---

[1] السابق ص 226 .

[2] علم الأصوات ص 531 ، 532 .

3- الهابطة : وتتمثل في التمني ،والتهكم ، وإظهار الأسف والحزن .

4- المستوية الصاعدة : وتتمثل في التهديد ، والسخط والغضب ، والتأييس .

5-المستوية الهابطة : وتتمثل في الإنكار والتوبيخ ، والعتاب ، والتعجيز ، والإهانة ، والسخرية .

6-الهابطة المستوية : وتتمثل في الحيرة والتخبط[1] ".

وهذه المستويات الستة هي ما ذكرها الدكتور / تمام حسان قبل ذلك ولكن مع خلاف في تحديد المصطلحات ، فذكر أن كل ما جاء في اللغة العربية من نماذج للتنغيم هي :

1-الإيجابي الهابط.

2-الإيجابي الصاعد .

3-النسبي الهابط.

4-النسبي الصاعد.

5-السلبي الهابط.

6-السلبي الصاعد[2].

ولكن ما يحاول أن يعرض له الباحث هنا في تلك الدراسة هو الاعتماد على التنويعات التنغيمية في نهاية الجملة القرآنية ومعرفة القالب التنغيمي الخاص بكل جملة .

فللصوت في التنغيم اللغوي درجتان : الأولى :يقصد بها الأثر السمعي الناتج عن ذبذبات الصوت زيادة ونقصانًا في السياق التنغيمي المنتهي بنغمة هابطة ، وهي النغمة التي تكون جزئية عادة ، كقوله تعالى : (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ) (28 – 29) الثانية :ويقصد بها الأثر السمعي الناتج عن ذبذبات الصوت زيادة ونقصانًا في السياق التنغيمي المنتهي بنغمة صاعدة أو ثابتة أعلي مما قبلها ، كقوله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأوا كِتَابِيَهْ) (الحاقة19 – 20)[3].

(1) التنغيم اللغوي في القرآن الكريم ص 157 .

(2) مناهج البحث في اللغة ص 198 .

(3) أصوات اللغة د.عبد الرحمن أيوب ص 107 – مطبعة دار التأليف بمصر – الطبعة الأولي 1963م.

ومن هنا إذا نظرنا إلى نهاية الكلمات في الجمل أمكن تقسيم التلوينات الصوتية التنغيمية إلى مستويين : المستوى الأول يحمل النغمة الهابطة ، والمستوي الثاني يحمل عنوان النغمة الصاعدة ، فـ" التنغيم على الرغم من اختلاف صوره وإمكاناته يمكن حصر نغماته الرئيسية في نغمتين اثنتين ، ولكن ذلك بالنسبة إلى نهايتها فقط . أما إطارها الداخلي فينتظم عددًا من التنويعات الجزيئية الكثيرة . فحسبان النغمات اثنتين فقط إنما هي بالنظر إلى النهاية لا إلى الوحدات الداخلية المتناثرة في المنطوق المعين[1] ".

ولكل شكل من هذين الشكلين تلوين نغمي في الجمل العربية ، وذلك بالتركيز على " نغمة آخر مقطع وقع عليه النبر في الجملة من الكلام . فإذا كان هذا المقطع منحدرًا من أعلي إلى أسفل فذلك هو الشكل الأول للحن العربي .وإن كان صاعدًا من أسفل إلى أعلي فهو الشكل الثاني ، ومع أن الشكل الأول هو المستعمل في الإثبات والنفي والشرط والدعاء وجميع الجمل حتى إنه ليشارك الثاني في مجاله وهو الاستفهام والعرض فيشمل الاستعمال بالظروف ونحوها دون الأداتين (هل والهمزة) نرى الشكل الثاني قاصرًا على الاستفهام بالأداتين فقط وهو النوع الوحيد من أنواع الاستفهام الذي ينتهي بنغمة صاعدة ، قارن العبارتين : هل جاء زيد ؟ متى جاء زيد ؟ تجد اختلافًا في النغمة الأخيرة في الجملتين ، ولا تصعد النبرة الأخيرة مع الظروف إلا عند إرادة التعبير بجملة الاستفهام عن معان إضافية كالدهشة أو التعالي أو نحوها . وفي هذه الحالة تجد جملة "متى جاء زيد " السابقة تنتهي بنغمة صاعدة[2] ".

وقد طبَّق الدكتور/ كمال بشر تلك التلوينات التنغيمية على العامية في توضيح الدلالات الخاصة بكل نغمة فقال " النغمة الأولى : هذه النغمة تسمي النغمة الهابطة ، وسميت كذلك للاتصاف بالهبوط في نهايتها على الرغم مما قد تنتظمه من تلوينات جزئية داخلية ... وأمثلة النغمة الهابطة كثيرة ، وتظهر بوجه خاص فيما يلي :

1- الجمل التقريرية : ونعني بها تلك الجمل التامة ذات المعنى الكامل غير المعلق ، كما في نحو :محمود في البيت ...

---

(1) علم الأصوات ص 534.

(2) اللغة العربية معناها ومبناها ص 229 ، 230 .

2-الجمل الاستفهامية بالأدوات الخاصة ، أي الجمل التي تحتوي على استفهام خاصة ...مثل محمود فين.

3-الجمل الطلبية:وهي الجمل التي تحتوي على فعل أمر أو نحوه ،مثل : اخرج بره ... النغمة الصاعدة : سميت كذلك لصعودها في نهايتها ، بالرغم من تنوع أمثلتها الجزئية الداخلية .

ومن أمثلتها التقليدية ما يلي :

1- الجمل الاستفهامية التي تستوجب الإجابة بلا أو نعم مثل محمود في البيت ؟.

2-الجمل المعلقة : ونعني بها الكلام غير التام لارتباطه بما بعده ، ويظهر ذلك بوجه خاص في الجزء الأول من الجمل الشرطية مثل : إذا جيت نتفاهم ... وهذا المثال في جملته انتهي بنغمة هابطة ؛ لأن الكلام قد تمَّ وأصبحت الجمل كلها تقريرية ، أما الجزء الأول وهو جملة الشرط :(إذا جيت) فهو كلام معلق ، أي يتم ويتوقف تمامه على الجواب[1] ".

خامسًا - القالب التنغيمي في سورة الزخرف وأثره الدلالي

استمر النزاع قائمًا بين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبين كفار مكة طوال فترة دعوته في مكة، فتارة يثيرون بعض الشبهات حول أمر الرسالة ، وتارة يجادلون بالباطل ، وقد ينسجون بعض القصص والأساطير التي لا حقيقة ولا واقع لها فتأتي سورة الزخرف لعرض هذه الفصول الثلاثة ، يأتي الفصل الأول منها تحت عنوان (شبهات الكافرين) ، وتستمر رواية هذا الفصل من الآية (1) إلى الآية (25) ، ثم يأتي الفصل الثاني تحت عنوان (مناقشة ومحاجة) ،وتأتي روايته من خلال الآيات (26) إلى الآية (56) ، ثم يأتي الفصل الثالث تحت عنوان (من أساطير المشركين) من الآية (57) إلى الآية (89)[2].

ومن خلال هذه الفصول الثلاثة تسجل هذه السورة مجموعة كبيرة من الأفكار يعرضها ربنا عزَّ وجلَّ على هؤلاء القوم لعلَّهم يرشدون فتستجيب عقولهم وقلوبهم لأمر النبوة وتنقطع بينهم وبين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حبال العداوة والبغضاء ، وهذه الأفكار هي :

1- وصف القرآن الكريم بأنه عربي ، متميز في اللوح المحفوظ.

2- الأمر بإنذار قومه –صلى الله عليه وسلم – ، مع غفلتهم وإسرافهم في لذات الدنيا .

---

(1) علم الأصوات ص 534: 537.

(2) ينظر : تفسير القرآن الكريم د. عبد الله شحاتة 13/ 4988 ، 4989 – دار غريب – القاهرة .

3- شان هؤلاء الكفار في تكذيب الرسول – صلى الله عليه وسلم – شان من سبقهم من المكذِّبين .

4- اعترافهم بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض .

5- ذكر جانب آخر من نعم الله تعالى في بسط الأرض ، وتيسير الطرق بحثًا عن الرزق ، وإنزال المطر لإحياء الأرض ، وخلق الأزواج في الإنسان والحيوان والنبات ليتم التناسل وإعمار الكون .

6- ذكر الله تعالى عند ركوب الدابة وركوب السفينة.

7- اعتقاد كفار مكة بأن الملائكة بنات الله .

8- تمسكهم بتقليد الآباء والأجداد ، ولو جاءت إليهم ألوان الهداية و الرسالة .

9- جانب من قصة إبراهيم الخليل.

10- رغبة كفار مكة في أن ينزل القرآن على رجل غنى عظيم من أهل مكة أو الطائف .

11- حكمة الله تعالى في توزيع الأرزاق ، واختياره واصطفاؤه للرسالة من يعلم أنه أصلح لها وأولى بها .

12- جانب من قصة موسى مع فرعون.

13- جانب من قصة عيسى عليه السلام .

14- وصف نعيم الجنة .

15- الأهوال التي يلقاها أهل النار، حتى يتمنوا الموت ليستريحوا مما هم فيه ،ولا تعجيب لهم.

16- متاركة أهل الباطل والصفح عنهم حتى يأتي أمر الله[1].

ومن خلال هذه الفصول الثلاثة نستطيع أن نستنتج أن الكثير من هذه الأفكار يحمل عنوان (القالب التنغيمي الهابط) ؛ لأن هذا القالب هو المناسب لعرض هذه الأفكار , وذلك من أجل تثبيت هذه الحقائق التي نلحظ من خلالها نغمة الحزن والأسف على هؤلاء الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة , سواء أكان ذلك من كفار مكة أم من هؤلاء الأقوام الذين كذَّبوا برسالة أنبيائهم ،وهم قوم إبراهيم و موسى وعيسى ، نلحظ ذلك في نهاية الآيات ، فهذه السورة قد رسمت لنا ثلاث حقائق

(1) السابق 13/ 5047 .

وهى :

الحقيقة الأولى: أعظم ما اشتملت عليه هذه السورة من الأغراض : التحدي بإعجاز القرآن لأنه آية صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيما جاء به والتنويه به عدة مرات وأنه أوحى الله به لتذكيرهم وتكرير تذكيرهم وإن أعرضوا كما أعرض من قبلهم عن رسلهم . وإذا قد كان باعثهم على الطعن في القرآن تعلقهم بعبادة الأصنام التي نهاهم القرآن عنها كان من أهم أغراض السورة ، التعجب من حالهم إذ جمعوا بين الاعتراف بأن الله خالقهم والمنعم عليهم وخالق المخلوقات كلها ، وبين اتخاذهم آلهة يعبدونها شركاء لله ، حتى إذا انتقض أساس عنادهم اتضح لهم ولغيرهم باطلهم.

الحقيقة الثانية : وجعلوا بنات لله مع اعتقادهم أن البنات أحط قدرًا من الذكور فيجمعوا بذلك بين الإشراك والتنقيص .وإبطال عبادة كل ما دون الله على تفاوت درجات المعبودين في الشرف فإنهم سواء في عدم الإلهية للألوهية ولنبوة الله تعالى ، وعرج على إبطال حججهم ومعاذيرهم ، وسفه تخييلاتهم وترهاتهم .

الحقيقة الثالثة : وذكَّرهم بأحوال الأمم السابقين مع رسلهم ، وأنذرهم بمثل عواقبها ، وحذَّرهم من الاغترار بإمهال الله وخص بالذِّكر رسالة إبراهيم و موسي و عيسى – عليهم السلام – . وخصَّ إبراهيم بأن جعل كلمة التوحيد باقية في جمع من عقبه وتوعد المشركين وأنذرهم بعذاب الآخرة بعد البعث الذي كان إنكارهم وقوعه من مغذيات كفرهم وإعراضهم لاعتقاد أنهم في مأمن بعدالموت[1].

و على وجه الإجمال" تعرض هذه السورة جانبًا مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب و عقبات ؛ ومن جدال و اعتراضات ، و تعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها في النفوس ؛ وكيف يقرر في ثنايا علاجها حقائقه وقيمه في مكان الخرافات و الوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة ، التي كانت قائمة في النفوس إذ ذاك ، ولا يزال جانب منها قائمًا في النفوس في كل زمان ومكان ... وفي هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية ؛ وردُّ النفوس إلى الفطرة وإلى الحقائق الأولى[2] ".

لذلك عندما نتأمل ختام هذه الآيات التي نلحظ فيها القالب التنغيمي الهابط ، وهي نماذج

---

(1) التحرير والتنوير 25 / 158 .

(2) في ظلال القرآن 5/ 3174 .

مختارة من سورة الزخرف على حسب ترتيب فصول السورة وأغراضها نذكر منها في الفصل الأول على سبيل المثال :

1- قوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (2) .

2- قوله تعالى: (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ) (6) .

3- قوله تعالى:(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)(10) .

4- قوله تعالى:(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)(11) .

ثم يأتي الفصل الثاني ومنه هذه الآيات :

5- قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ) (26) .

6- قوله تعالى:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (46) .

7- قوله تعالى :(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (54) .

ثم يأتي الفصل الثالث ومنه هذه الآيات :

8- قوله تعالى :(إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (64) .

9- قوله تعالى:(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) (76).

10- قوله تعالى :(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(84) .

بداية وفي الآية الأولى " فالله أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن على أن القرآن جعله الله عربيًّا واضح الدلالة فهو حقيق بأن يصدِّقوا به لو كانوا غير مكابرين ، ولكن بمكابرتهم كمن لا يعقلون ... والمعنى : أنا يسَّرنا فهمه عليكم لعلكم تعقلون فأعرضتم ولم تعقلوا معانيه ، لأنه قد نزل مقدار عظيم لو تدبروه لعقلوا ، فهذا الخبر مستعمل في التعريض على طريق الكناية[1] ".

ثم تأتى الآية الثانية وهي تحمل الاستفهام في صورة الخبر لتقرير أمر الرسالة واثبات حقيقتها ، فإنه تعالى : " لما ذكر إسرافهم في الإعراض عن الإصغاء لدعوة القرآن و أعقبه بكلام موجه إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – تسلية عما يلاقيه منهم ، في ظلال الإعراض من الأذى والاستهزاء ، بتذكيره بأن حاله في ذلك حال الرسل من قبله وسنة الله في الأمم ، ووعد الرسول – صلى الله عليه وسلم- بالنصر على قومه بتذكيره بسنة الله في الأمم المكذبة رسلهم ... و (كم) اسم

[1] التحرير والتنوير 25/ 159 .

دال على عدد كثير مبهم ، وموقع (كم) نصب بالمفعولية لـ (أرسلنا) ، وهو ملتزم تقديمه لأن أصلة اسم استفهام فنقل من الاستفهام إلى الإخبار على سبيل الكناية وشاع استعماله في ذلك حتى صار الإخبار بالكثرة معنى من معاني (كم) ، والداعي إلى اجتلاب اسم العدد الكثير أن كثرة وقوع هذا الحكم أدخل في زجرهم من مثله وأدخل في تسلية الرسول – صلى الله عليه وسلم-وتحصيل صبره ؛ لأن كثرة وقوعه تؤذن بأنه سنة لا تتخلف ، وذلك أزجر وأسلى[1] ".

ثم تأتى الآية الثالثة والرابعة للتذكير بنعم الله عز وجل على بني الإنسان ،" فهذا كلام موجه من الله تعالى ، هو تخلص من الاستدلال على تفرده بالإلهية بأنه المنفرد بخلق السموات والأرض إلى الاستدلال بأنه المنفرد بإسداء النعم التي بها قوام أود حياة الناس ... ثم انتقل من الاستدلال و الامتنان بخلق الأرض إلى الاستدلال والامتنان بخلق وسائل العيش فيها ، وهو ماء المطر الذي به تنبت الأرض ما يصلح لا قتيات الناس[2]".

ثم تأتي الآية الخامسة لتعرض حال الأمم السابقة مع أنبيائهم فتخاطب النبي – صلى الله عليه وسلم – ، " واذكر أيها الرسول لقومك جدَّهم إبراهيم الخليل ، الذي تبرأ من عبادة الأصنام ، وجهر بهذه البراءة أمام أبيه وقومه ، وكان الأولى بأهل مكة أن يتبعوه في نبذ الأصنام وإخلاص التوحيد[3] ".

ثم تعرض لقصة أخري من قصص الأنبياء في الآية السادسة وهي قصة موسى – عليه السلام – مع قومه ، حيث " تكررت قصة موسي في القرآن الكريم تسلية للرسول – صلى الله عليه وسلم – ، وتهديدًا لأهل مكة ، حتى يتعظوا ويعتبروا ، فقد أغرق الله فرعون وجيشه في الماء ، وقد كانوا أكثر مالا وعظمة من أهل مكة ، وينبغي أن يتعظ الإنسان بما أصاب الآخرين ، فالسعيد من اتعظ بغيره ، والشقي من حرم الاتعاظ بنفسه .ومعني الآية : ولقد أرسلنا موسي –عليه السلام – مؤيدًا بمعجزاتنا – كاليد والعصا – إلى فرعون و ملئه من القبط بمصر ، وقال موسى لهم :إني رسول رب العالمين إليكم ، أي خالق الكون والإنس والجن والطير ، وعالم السماء ، وعالم الأرض ، وعالم الملائكة ، وجميع العالمين[4] ".

---

(1) السابق 25 /165.

(2) السابق 25/ 168 ، 170.

(3) تفسير القرآن الكريم 13/ 5009 .

(4) السابق 13/ 5023.

والله عزَّ وجلَّ في هذه القصة يؤصِّل لحقيقة هذا العداء بأن ما حدث مع محمد – صلى الله عليه وسلم – وقومه قد حدث قبل ذلك مع موسى –عليه السلام – مع قومه ، فهذا هو حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،"فإن للمثل والنظائر شأنًا في إبراز الحقائق وتصوير الحالين تصويرًا يفضى إلى ترقب ما كان لإحدى الحالتين من عواقب أن تلحق أهل الحالة الأخرى ، فإن فرعون وملئه تلقوا موسى بالإسراف في الكفر وبالاستهزاء به وباستضعافه إذ لم يكن ذا بذخة ولا محلى بحلية الثراء ...فحصل من العبرة هذه القصة أمران:أحدهما :أن الكفار والجهلة يتمسكون بمثل هذه الشبهة في ردِّ فضل الفضلاء فيتمسكون بخيوط العنكبوت من الأمور العرضية التي لا أثر لها في قيمة النفوس الزكية ، وثانيهما : أن فرعون صاحب العظمة الدنيوية المحضة صار مقهورًا ، مغلوبًا انتصر عليه الذي استضعفه[1] ".

ثم تأتي الآية السابعة تعليلا لهذا الفسق الذي وصل إليه حال قوم فرعون بأن هذا الفسق مرده هو أنه " استخف بعقول قومه وأحلامهم واستجهلهم ، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة ، وإنما أجابوه لفسقهم وخروجهم على طاعة الله ، وعدم تمسكهم بالحق ، فلم يطيعوه عن قناعة ، بل عن رغبة في مشايعة الهوى ، وإيثار للعاجلة على الآجلة[2] ".

"فالخفَّة مستعارة للانتقال من حالة التأمل في خلع طاعة فرعون والتثاقل في اتباعه إلى التعجيل بالامتثال له كما يخف الشيء بعد التثاقل ، والمعنى يرجع إليه إلى أنه استخف عقولهم فأسرعوا إلى التصديق بما قاله بعد أن صدقوا موسى في نفوسهم لما رأوا آياته نزولا ورفقًا[3] ".

ثم تعرض الآية الثامنة لقصة عيسى –عليه السلام– مع قومه والذي يقرر أمامهم أن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، " إن الله العلى الكبير هو ربي وهو ربكم ، فاتجهوا إليه وحده بالعبادة ولا تعبدوا سواه ، فهذا هو الطريق المستقيم الواضح المعتمد على التوحيد لله ، وفي هذا رد صريح على من قال : إنه ابن الله ، أو قال : إنه هو الله ، أو قال : هو ثالث ثلاثة ، وكلها أقوال باطلة ، والصواب ما قاله المسيح هنا إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . قال ابن كثير : أي أنا وأنتم عبيد له ، فقراء إليه ، مشتركون في عبادته وحده[4] ".

---

(1) التحرير و التنوير 25/ 223 ، 224 .

(2) تفسير القرآن الكريم 13/ 5025 .

(3) التحرير والتنوير 25/ 532.

(4) تفسير القرآن الكريم 13/ 5024 .

ثم تأتي الآية التاسعة لتقرير هذه الحقيقة التي لابد لجميع البشر من أن يكونوا على علم بها ، بأن مصيرهم إلى النار إذا اتبعوا الهوى ، وهذا ليس ناتجًا عن ظلم الله لهم وإنما ناتج عن ظلمهم لأنفسهم ، (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) (76) ، " لقد اختاروا طريق الشهوات والهوى والكفر ، وأثروا العاجلة على الآجلة ، وباعوا الحق والهدى ، فلم يظلمهم الله حين أنزل بهم أشد العذاب ، ولكنهم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الضلالة على الهدى[1] ".

وفي الآية العاشرة لابد من الاعتراف بحقيقة توحيد الله سبحانه وتعالى ،" فهو سبحانه منزه عن الولد ، وأيضًا منزه عن المكان ، والكيف والكمّ والطول والعرض ،قال تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى 11)[2]".

ف "بعد أن وصف الله بالتفرد بالإلهية أتبع بوصفه بـ (الحكيم العليم) تدقيقًا للدليل الذي في قوله: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) ،حيث دل على نفي إلهية غيره في السماء والأرض واختصاصه بالإلهية فيهما لما في صيغة القصر من إثبات الوصف له ونفيه عمن سواه فكان قوله (وهو الحكيم العليم) تتميمًا للدليل واستدلالا عليه ، ولذلك سميناه تدقيقًا إذ التدقيق في الاصطلاح هو ذكر الشيء بديل دليله ، وأما التحقيق فذكر الشيء بدليله ؛ لأن الموصوف بتمام الحكمة وكمال العلم مستغن عما سواه فلا يحتاج إلى ولد ولا إلى بنت ولا إلى شريك[3] ".

ولكن مع سيطرة هذا القالب التنغيمي الهابط على معظم فصول وأفكار هذه السورة إلا أنه بين لحظة وأخري يأتي القالب التنغيمي الصاعد في نهاية الآيات ، وخاصة تلك القوالب التي صيغت بصورة الاستفهام في صورتها الظاهرة ولكنها تحمل في باطنها صورًا أخري قد تكون على سبيل التهديد أو الإنكار أو التقرير ، وكأنها تمثل صرخة تفزع هؤلاء من مرقدهم وتؤرِّق عليهم حياتهم ، ومنها على سبيل المثال في الفصل الأول من فصول هذه السورة :

– قوله تعالى : (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ)(5) ، حيث " كان أمرًا عجيبًا أن ينزل قرآن عربي مبين ، عليٌّ حكيم ، ثم يقابل بالإعراض والصدود من كفار مكة ، لذلك

(1) السابق 13/ 5040.
(2) السابق 13/ 45.
(3) التحرير والتنوير 25 / 268.

يلوِّح القرآن هنا بالتهديد بأن يمسك الله عن استمرار نزول القرآن عليهم ، بسبب إسرافهم في الكفر والتكذيب ، ولكنه تعالى – تفضلا منه – واصل إنزال القرآن الكريم على رسوله محمد – صلى الله عليه وسلم – ليكون مصدر هداية للمؤمنين ، وآداة إرشاد للمسترشدين ، ولتقوم الحجة على الأشقياء الكافرين ، قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردَّته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله ردَّه وكرره عليهم برحمته[1] ".

– ثم تأتي الصرخة الثانية في آية أخرى وهي قوله تعالى : (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ) (16) ، والمعنى " أتجعلون لله ما تكرهون ، وتدَّعون أن الله جعل لنفسه الجنس الأقل ، وهو البنات ، وميزكم واختار لكم البنين مع أنكم تكرهون لأنفسكم البنات ، وتفضِّلون الذكور الذين يركبون الخيل ، ويدفعون عن القبيلة[2] ".

– ثم تأتي الصرخة الثالثة في الفصل الثاني من فصول هذه الدراسة ، وذلك كما في قوله تعالى:(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ)(32) ، "هذا استفهام إنكاري عليهم ، والمعنى : هل تقسيم النبوة والرسالة والألطاف الإلهية موكول إليهم حتى يطلبون أن تكون الرسالة إلى عظيم من عظماء مكة أو الطائف ؟ إذا كنا نحن قد قسمنا بينهم حظوظهم في الأموال والأرزاق و العقول وشئون الحياة ، وجعلنا بعضهم غنيًّا وبعضهم فقيرًا ، وبعضهم متوسطًا ،وجعلنا هذا أميرًا وهذا مأمورًا ، وهذا أجيرًا وهذا دافع أجرة ، ففاوتنا بينهم في المعايش ، ليتمّ تسخير كل إنسان لمصلحة الآخرين ، فيسعد الجميع ويعمر الكون ، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال ، لم يخدم أحد أحدًا ، فيفضى ذلك إلى خراب العالم وفساد نظامه[3] ".

– ثم تأتى الصرخة الرابعة في قوله تعالى :(وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) (45) ، والآية تهدف إلى "أن التوحيد والإقرار لله تعالى بالوحدانية هو رسالة جميع الرسل ، دعا إليه نوح وإبراهيم وهود وصالح وموسي وعيسى ومحمد – صلى الله عليه وسلم – ، والتوحيد فطرة تنطق بها الأرض والسماء ...قال أبو حيان : والسؤال هنا مجاز عن النظر في أديان الأنبياء ، هل جاءت عبادة الأوثان في ملة من مللهم ؟... ويصح أن يكون السؤال في الآية

(1) تفسير القرآن الكريم 13/ 4994.
(2) السابق 13/ 5003 .
(3) السابق 13/ 5012.

موجهًا إلى كل واحد من قريش ، وكأنه قيل : وليسأل كل واحد منكم أمم من أرسلنا قبلك رسلنا ، هل شُرع لأي أمة عبادة الأوثان أو الأصنام أو غيرها من دون الله تعالى ، أي إنك يا محمد لم تأت قومك حين دعوتهم إلى التوحيد بأمر ابتدعته من عند نفسك ، بل هو أمر مجمع عليه من سائر المرسلين قبلك ، وهذا يدل على وحدة الدين الحق في أصوله ، ووحدة مهمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[1]".

و" الأمر بالسؤال هنا تمثيل لشهرة الخبر وتحققه ... إذ لم يكن الرسول– صلى الله عليه وسلم – في شك حتى يسأل ، وإلا فإن سؤاله الرسل الذين من قبله متعذر على الحقيقة ،والمعني : استقر شرائع الرسل وكتبهم وأخبارهم هل نجد فيها عبادة آلهة ... والهمزة للاستفهام وهو إنكاري وهو المقصود من الخبر، وهو ردٌّ على المشركين في قولهم : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ) (22) : أي ليس آباؤكم بأهدى من الرسل الأولين إن كنتم تزعمون تكذيب رسولنا لأنه أمركم بإفراد الله بالعبادة . ومعني الكلام : وإنا ما أمرنا بعبادة آلهة دوننا على لسان أحد من رسلنا . وهذا ردٌّ لقول المشركين : (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ)(20) ... فمعنى (أجعلنا) ما جعلنا ذلك ، أي جعل التشريع والأمر ، أي ما أمرنا بأن تعبد آلهة دوننا . فوصف آلهة بـ (يعبدون) لنفي أن يكون الله يرضى بعبادة غيره فضلا عن أن يكون غيره إلهًا مثله ؛ وذلك أن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ، وكانوا في عقائدهم أشتاتًا ، فمنهم من يجعل الأصنام آلهة شركاء لله ، ومنهم من يزعم أنه يعبدهم ليقربوه من الله زلفى ، ومنهم من يزعمهم شفعاء لله عند الله ، فلما نفى بهذه الآية أن يكون جعل آلهة يعبدون أبطل جميع هذه التمحلات ، وأجرى (آلهة) مجرى العقلاء فوصفوا بصيغة جمع العقلاء بقوله (يعبدون).ومثله كثير في القرآن جريًا على ما غلب في لسان العرب إذ اعتقدوهم عقلاء عالمين[2] ".

- وكذلك منها هذه الصرخة الخامسة ولكنها ليست من جانب الله ولكنها من جانب فرعون عندما أحسَّ بأن ملكه الظاهري والذي يظنه كذلك قد يضيع منه (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ) (51) ،حيث " جمع

(1) السابق 13 / 5020.

(2) التحرير والتنوير 25 / 222 ، 223 .

فرعون رؤساء قومه وأشرافهم ورفع صوته قائلا : أليس لي ملك مصر من أوَّلها إلى آخرها ، وهذه الأنهار المتفرعة من النيل تجرى من تحت قصري ، أفلا تبصرون ما أنا فيه من النعمة والملك[1] ؟ ".

– ثم تأتى الصرخة السادسة من عند الله تعالى ، وذلك في لقطات من الفصل الثالث والأخير ، (هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون)(66) ، والمعنى : " هل ينظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل إلا مجيء القيامة بغتة وفجأة ، حيث لم يعُدُّوا لها إيمانًا ولا عملا صالحًا ، ثم تأتيهم القيامة فجأة وهم لا يشعرون بقدومها ، أي وهم غافلون عنها ، ثم يندمون أشد الندم على أنهم لم يعملوا لها عملا نافعًا أو مفيدًا[2] ".

– ثم تأتى الصرخة السابعة لتؤكِّد لهم أن الله مطلع على أحوالهم وحافظ نبيَّه من كل ما يكيدون له ، في قوله تعالى : (أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) (79) ، فـ" أمْ ، للإضراب الانتقالي ، حيث كان الحديث عن عذاب المجرمين في جهنم ، فانتقل إلى مجابهة أهل مكة ،أي : بل دبروا وأحكموا المكر والكيد لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – في دار الندوة ، حيث فكَّروا في حبسه أو نفيه أو قتله ، وأخيرًا استقرَّ رأيهم على أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلدًا وسطًا متينًا ، ويعطي كل شاب سيفًا صارمًا بتَّارًا يضربوا النبي – صلى الله عليه وسلم – ضربة واحدة ، وبذلك يتفرق دمه في القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف محاربة كل هذه القبائل ، فيقنعون بالدِّية في قتله ، وبذلك يستريح كفار مكة ، لكن الله أبرم ودبَّر وأحكم حفظ رسوله ، وأمره بالهجرة ، فيخرج من بينهم بحفظ الله ورعايته[3] ".

إذًا ومن خلال هذا القالب التنغيمي بين الصعود والهبوط ظهرت أنواع الجمل ودلالتها في سورة الزخرف ، وذلك بشكل يتفق مع أغراض وأفكار هذه السورة ،حيث " قد رتبت هذه الأغراض وتفاريعها على نسج بديع وأسلوب رائع في التقديم والتأخير والإحالة والاستطراد على حسب دواعي المناسبات التي اقتضتها البلاغة ، وتجديد نشاط السامع لقبول ما يلقى إليه . وتخلل في خلاله من الحجج والمثل والقوارع والترغيب والترهيب ، شيء عجيب ، مع دحض شبهة المعاندين

(1) تفسير القرآن الكريم 13/ 5024.
(2) السابق 13/ 5034 .
(3) السابق 13/ 5041 .

بأفانين الإقناع بانحطاط ملة كفرهم وعسف معوج سلوكهم ، وأدمج في خلال ذلك ما في دلائل الوحدانية من النعم على الناس والإنذار والتبشير ، وقد جرت آيات هذه السورة على أسلوب نسبة الكلام إلى الله تعالى عدا ما قامت القرينة على الإسناد إلى غيره[1]".

(1) التحرير والتنوير 25 / 158 ، 159 .